حسن داوود

نقّل فؤادك

نقّلْ فؤادَكَ

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- مئة وثمانون غروباً
- أيام زائدة
- فيزيك
- غناء البطريك
- لا طريق إلى الجنة

حسن داوود

نقّلْ فؤادَكَ

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة.
الطبعة الورقية الأولى، في عدد خاص من مجلة "البوابة التاسعة"، ٢٠١٤

الطبعة الورقية الثانية، دار الساقي، ٢٠١٥

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٥

ISBN-978-614-425-712-8

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٢، فاكس: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٣

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

قد يقول قارئ استوقفه شبه إحدى شخصيّات الكتاب نفسه: إه... هذا أنا. وقد يكون ذلك صحيحاً، في صفحة أو صفحتين أو حتى أكثر. لكنه لن يعود هو في ما سيتبع من صفحات. وهذا ما سيلاحظه بنفسه إن أكمل القراءة.

إلى من باتوا كثيرين

إن كنت سأفعل ذلك، فعليّ أن أفعله الآن. أن أتأخّر، أو أن أؤجّل، فذلك يعني أنّ ما بقيت أعد نفسي به، سنة بعد سنة، لن يحصل أبداً. لم يعد لديّ متّسع من الوقت، أو من العمر. صرت في المحطّة الأخيرة التي لن يكون ممكناً فعل شيء من بعدها. بل إنّني ربّما تأخّرت فعلاً، إذ كان عليّ أن أبدأ بحثي عنها منذ عشر سنوات، أو الأفضل، منذ خمس عشرة سنة. لو فعلت ذلك لكانت هي، ولكنت أنا أيضاً، في الهيئة التي لن تفاجئ أحدنا حين يراه الآخر. لما كنّا في الهيئة التي قد تربكنا معاً، كما قد يحصل لنا الآن ونحن نقترب من عمر الستّين. أنا في الثامنة والخمسين، وهي، ربما، أصغر من ذلك بسنة.

كان عليّ أن أبدأ ذلك منذ أن وقفتْ لي، فيما هي تنعطف لتدخل إلى الطريق الضيّقة التي يقع فيها بيتها. ”امش... وقفتْ لك... وقفت لتحكيك... امش وكلّمها“، صار يقول لي جابر وأنا ثابت في مكاني. وهي، على كلّ حال، لم تقف لي أكثر من ثوان قليلة أكملتْ من بعدها انعطافها، لا بدّ، إذ إنّني لم أعرف ماذا حدث بعد ذلك. أي إنّ وقوفها ذاك، وقوفها لي لأخطو نحوها، في ذلك اليوم من صيف ١٩٦٥، كان في ذاكرتي آخر صورها.

ذاك أني لم ألتفت إلى حيث دخلتْ في الطريق الضيّقة، كما أنّني لم ألتفت إلى الوراء، فيما نحن، أنا وجابر، نتسلّق الدرجات الثماني والتسعين الصاعدة إلى الطريق العالية. كنت خائباً ومحبطاً على الرصيف هناك، ناظراً إلى الأسفل، حيث ما ينبغي أن يكون بيتها. ”شوف... شوف... هي واقفة على الشبّاك... واقفة إلك“. لكنّني لم أستطع أن أعرف، من بين الشبابيك المتوزّعة على حيطان البيوت المتجاورة، أيّ شبّاك هو شبّاكها.

وهي هناك، في الأسفل، واقفة لي، مرتدية ما شبّهتُه بثياب الإسكوتلنديين، ومبتسمة، حفظتُ لها آخر صورة من صورها في ذاكرتي. وأنا كان ينبغي علي أن

أبدأ من تلك اللحظة. أو من حيث كان جابر يشير لي بإصبعه مرّة بعد مرّة وهو يقول لي، "هون... هون على الشبّاك... مش شايف... أعمى أنت؟". ربما كان عليّ أن أوسع عينيّ مثلاً. أو أن أعود فأنزل الدرجات الثماني والتسعين بعد أن كان لهاثي قد هدأ من صعودها، ثمّ أنعطف، انعطافتها ذاتها، إلى بيتها الذي لا أعرف، حين أصير هناك في آخرالطريق الضيّقة ، أيّ واحد من البيوت هو. وهي، ربما ستنقلب إلى تلك الجهة لتراني ماشيا باتّجاهها. ربما... ربما...

لا بدّ أنّني قلت آنذاك، وأنا واقف بقرب جابر، خجلاً من فشلي وداعياً إيّاه إلى أن نبتعد عن مكان وقوفنا: "تعا نروح يا جابر، هلّق خلص، منرجع لهون بوقت تاني". وهذا على كلّ حال ما بقيت أقوله طيلة السنوات الكثيرة التي تلت. بقيت أؤجّل ذلك إلى وقت آخر. كنت أقول ذلك حتى في المرّات القليلة التي خطوت خطوات في بحثي عنها. في سنة ١٩٧٣ قلت لصديقين ذهبت برفقتهما إلى الأردن، راكبين سيارة أحدهما، الميني ماينور الصغيرة الصفراء، "يا الله نرجع على بيروت، مش راح نلاقيها هون". في الأيّام الثلاثة التي قضيناها هناك لم أقم بأكثر من النظر في دليل الهاتف بحثاً عن اسم عائلتها، واسم أبيها الذي لم أكن واثقاً من حفظي له. لكنّنا كنّا نمرح في الأردن. ونضحك، كثيراً ما نضحك، حتى ونحن نكلّم الجنود الذين ترتفع من أعلى خوَذهم أنصال مروّسة تشبه رؤوس الرماح. كنا نضحك حتى ونحن نتّخذ هيئة الجد أمام صاحب المطعم الكهل لنضحك من كلّ كلمة يقولها. وحين نزلنا لنسبح في مياه البحر الميّت، صار وائل يُضحكنا بمحاولته أن يغرق بينما الماء الثقيلة تبقيه طافياً فوقها. "مش معقول" صار يقول، فيما هو يدلّنا بيديه على جسمه، الظاهر أكثره فوق صفحة الماء. وأنا رحت أقول لنبيه، الواقف بقربي على رمال الشاطئ، تعال نساعده على الغرق، هيّا بنا إليه، هيّا نجلس فوقه، أو نشدّه بأيدينا إلى الأسفل وهو سيغرق لا بدّ.

* * *

لقد جدّدوا كلّ شيء هنا، إلّا بوّابة الحديد التي، لأفتحها، ينبغي لي أن أجرّها بيديّ الاثنتين. أفكّر أنّ ثقل وزنها سيُطلع صوت الكهرباء قويّاً إن جعلوها تنفتح وتنغلق بالأزرار. لكن، في أيّ حال، لا يضيرهم أن تبقى البوّابة هكذا على حالها القديمة ما داموا، بعد أن جدّدوا كلّ شيء، سيظلّون محتفلين بما كانه هذا الجزء من المدينة في زمنه السابق. في الخارج، من لحظة ما أضع قدمي على الطريق، أبدأ بتشمّم رائحة العطرالتي تلازمني حتى وصولي إلى شارع السيّارات العريض. في الأيّام الأولى من عملي هنا، فاجأني كيف أنّ الرائحة تعبق، وتظلّ عابقة، في طريق مفتوحة من جهتيها، بل ومفتوحة على السماء أيضاً. عطر جديد. عابق وقويّ. وهو تسلّل، أو تدفّق، من المحال التي تبيع الثياب الباهظة الثمن. المحال التي لا تعرض كلّ من واجهاتها إلا ثوباً واحداً، كأنّها لا تحتاج إلى أكثر من زبون واحد في اليوم. وهذا، الزبون الواحد لم يحدث لي أن صادفته، داخلاً أو خارجاً، في فترة الشهر ونصف الشهر التي انقضت على بدئي العمل.

كلّ شيء جديد هنا. حتى بوابة الحديد القديمة تلك، حتى الحجارة السوداء التي بلّطوا بها الطريق ليذكّروا بأنّ الطريق كانت هكذا مبلّطة بالحجارة السوداء قبل مئة عام. حتى "الكفّ الأحمر"، محلّ التحف الذي كان من المحال المشهورة، والذي أُقفل قبل أربعين عاماً، عاد جديداً، غير عابئ حتى بأن يتذكّر الناس عراقته وقدم اسمه. كلّ شيء جديد هنا. وهو يذكّر بجدّته كلّ يوم، ويُعمل على جدّته، إذ لا يتوقّف الموظّفون عن نفض الغبار وغسل زجاج الواجهات، وتزييت حديد السلالم الكهربائيّة، ورفع الصور الكبيرة لنساء مستفزّات يرتدين ألبسة داخلية وبناطلين ضيّقة مشدودة.

كلّ شيء جديد هنا. غالباً ما أسأل، فيما أكون أنظر من أعلى درجات السلّم الكهربائي، كيف أبدو أنا لمن يراني حين أصل إلى أسفل الدرجات وأبدأ مشيي بين المارّة القليلين، مجتازاً بينهم تلك المساحة الواسعة بين حدّي البنايات. أفكّر أنّني لن أُلاحَظ، أي إنّ من يرونني لن يجدوا فيّ ما يدفعهم إلى الالتفات إليّ. ليس مثلما أفعل أنا حين أنظر إلى الفتيات الثلاث، السمراوات، الجالسات معاً وقد انحنت ظهورهنّ من جلوسهنّ متحدّثات على مهل.

وها قد مرّ شهر ونصف شهر من دون حتى أن يلاحظن مروري. وقد يبقين هكذا سنة أو سنتين على مقعدهنّ ذاك، ولا يلتفتن مرّة واحدة إليّ. حتى إنّ عينيّ أيّ منهنّ لن تقعا عليّ بالخطأ. ذاك أنّهنّ يستطعن التحكّم في كلّ شيء فيهنّ. يتحكّمن في عيونهنّ أين تذهب نظراتها، يتحكّمن حتى في استرخائهنّ، وبالقدْر الذي يخرجن فيه أقدامهنّ لتكون حرّة من المشّايات، من أجل أن يبقين مرتديات لها ومتخفّفات منها في الوقت نفسه.

أخمّن من جلوسهنّ، على المقعد ذاته، كلّ يوم، أنّهن ينتظرن أن يُفتح المحلّ الذي يعملن فيه. أن تأتي صاحبته وتتّجه توّاً إلى بوابته المقفلة. وهنّ سيقمن من جلوسهنّ، لينتظرن انفتاح الباب، وليدخلن، لكن بعد أن يتأكّدن أنّ المرأة أنهت الدقيقة التي تحتاج إليها لترى أنّ كلّ شيء في الداخل ما زال في مكانه.

ها قد انقضى شهر ونصف شهر على مجيئي كلّ يوم وهنّ ما زلن على جلوسهنّ، أو انتظارهنّ. ربما سيكون عليّ أن أغيّر وقت وصولي. أن أتأخّر ساعةً، أو أن أترك المكتب الذي أشتغل فيه، مرّة بعد مرّة، بفارق نصف ساعة بين المرّة والأخرى، علنّي أشاهدهنّ في الوقت الذي يقمن فيه، متهيّئات ليدخلن معاً إلى ذلك المحلّ، أو ليتفرّقن ربّما إلى المحال المتقاربة التي تعمل كلّ منهنّ في واحد منها.

* * *

- تعال، تعال معي... هذا الرجل هناك قد يفيدك، قالت لي سعاد فيما هي تمسكني من يدي.

كان واقفاً في حلقة من أربعة أشخاص أو خمسة، حاملاً بيده كأس النبيذ ومصغياً، بلامبالاة على الأرجح، إلى ما يقوله الرجل المتحدّث قبالته.

وهي ما زالت ممسكة بيدي، وشوشت له سعاد شيئاً من وراء أذنه. التفت إلينا، نحن الواقفيْن خلف ظهره

- أهلاً سعاد، قال، رافعاً عينيه إلى ما فوق نظّارته.

- بدّي عرّفك على صديق من لبنان.

رفع حاجبيه مرّة أخرى ثمّ، ليصافحني، نقل كأسه إلى يده الأخرى.

- السيّد عزيز عباشي من جنين... أصلاً من جنين، قالت سعاد موضحة وهي تشير بذراعها إليه. وإذ انتقلتْ إليّ لتعرّفه بي، كان عليّ أن أستعدّ لأحكي حكايتي، بأسرع ما يمكن وبأقلّ ما يمكن من الكلمات: إنّني كنت زميلاً في المدرسة لدلال عبّاشي، وكنّا صديقين، وهي غادرت بيروت في سنة ١٩٦٥ ولم أعرف عنها شيئاً منذ ذلك الحين.

ابتسمَ، ثمّ سأل ممازحاً، في أيّ سنة نحن الآن. لكنه مع ذلك بدا كأنّه يريد حقّاً أن يعرف الجواب.

- ١٩٩٢، قالت سعاد.

- يعني... قال، ثم أطرق كأنما ليحسب عدد السنوات التي تفصل عن ١٩٦٥.

- ٢٧ سنة، قلت أنا، مضت ٢٧ سنة.

- وقت طويل، قال مستعيداً تلك الابتسامة التي، إن زادها اتساعاً، ستغيّر لا بدّ شكل وجهه.

- قاسم بدّو يعرف إذا كنتو قرايب، إذا كنت بتعرف ستّ من عيلتك اسمها دلال.

فاجأتني كلمة "ستّ". كانت الكلمة ستأخذني إلى أن أبدأ بتخيّل دلال امرأة في الأربعين مثلاً لو لم أصرف نفسي عن ذلك، ناظراً إلى سعاد متبيّنا كيف تسنّى لها أن تنقل دلال إلى أن تكون "ستّ"، وكيف أجرت ذلك مثل حساب سريع.

- أنت بتعرفيها؟ سألها الرجل الذي اسمه عزيز.

لم تجب سعاد بأكثر من تحريك وجهها نافية أنّها تعرفها، وهي همّت بأن تقول شيئاً لولا أن الرجل التفت إليّ ليسألني في أيّ عمر ينبغي أن تكون هي الآن.

كان عليّ أنا، هذه المرة، أن أنقلها إلى عمر الأربعين، أو أكثر بسنة.

- واسم والدها، بتعرف اسم والدها؟

- ربما صلاح، ربما صالح... ما بعرف.

- كان لازم تعرف.

فهمت. كان يقصد أنّ من يسأل عن بنت أو امرأة عرفها من ٢٧ سنة عليه أن يحفظ على الأقل اسم أبيها.

- كنت صغير يومها... كنا صغار وما كنّا نهتمّ...

كما لو أنه يريد أن يتسلّى، راغباً في الانصراف عمّن كان يقف بينهم. أدركتْ سعاد ذلك، لكن بدل أن تقوم بشيء يخلّصنا معاً، أنا وهي، قالت إنها ستتركنا وحدنا، ومشت باتّجاه زوجين، رجل وامرأة بدا أنهما لم يجدا أحداً يحادثانه.

فكّرتُ أنه، هو أيضاً، أُحرج بترك سعاد لنا هكذا، وحدنا أنا وهو، من دون أيّ تعاطف كان يمكن أن ينشئه سؤالي الغريب عن رفيقة في المدرسة عرفتُها وأنا بعد صبي. لن يحتاج إلى أكثر من أن يرسم على وجهه، بدءاً من حاجبيه المرتفعين، علامة الاستفهام التي تعني أنّه لم يعرف... لم يعرفها، ثمّ يستدير عائداً إلى وقوفه مع من لا يزالون واقفين في حلقتهم.

لكنّه، بدلاً من ذلك:

- لكن مش مبيّن إنّو إنتو بعمر واحد.

- أنا ومين؟ هي... بتقصد دلال؟ دلال عباشي؟

ظلّ محدّقاً فيّ، يفكّر.

- بتفكّر إنّها أكبر مني أو أصغر مني؟

- أكبر منك.

- يعني أكبر بكثير؟

صمت. فقط حرّك رأسه يميناً وشمالاً كأنّه لا يستطيع، أو لا يريد، أن يجيب. ربما لا يرغب في أن يقول إنّ حيّاتها غيّرتها، وإنّها مثل الكثير من النساء أرهقها إنجاب الأولاد وتربيتهم فصارت كأيّ واحدة منهنّ.

- لكن يمكن اللي عم تتذكّرها ست تانية؟ يمكن تكون واحدة غيرها اسمها دلال عباشي. يمكن في أكثر من واحدة بها الاسم.

- بعرف. عندنا بالعائلة أكثر من واحد اسمهم عزيز.

- يمكن اسم دلال كذلك؟

- ربما...؟ أنا ما بعرفن كلّهن على كلّ حال.

* * *

ذلك الرجل الذي اسمه عزيز كان يتسلّى. لم يقل كلمة واحدة تدلّ على أنّه عرف دلال أو عرف شيئاً عنها. لكنّني، مع ذلك، بقيت طيلة السنوات التي تلت متذكّراً وقوفه أمامنا أنا وسعاد، ومتذكّراً نظرته التي نصْفُها من تحت نظّارته ونصْفها من فوقها، ومتذكّراً كذلك حيرتي إزاء كلّ ما قاله.

وكان يمكنني أن أتصرّف بحسب ما قلته لسعاد حين، وهي واقفة لا تزال بين الزوجين، أدارت يدها سائلة إياي: ماذا؟... هل...؟ وأنا، بيدي أيضاً، تلك التي نفضتها كأنّني أُبعد بها شيئاً، أبلغتها أن لا شيء.

لكنّ الرجل، مع ذلك، تمكّن من أن يضع إلى جانب دلال عباشي التي أعرفها دلال عباشي أخرى: امرأة في الأربعين. امرأة ستكبر حتى عن الأربعين، سنة بعد سنة. لكنّني، وهذا ما تمكّنت من فعله، أبقيتهما منفصلتين: دلال التي عرفتها، في العمر الذي عرفتها فيه... وتلك المرأة التي لم تستطع أن تشكّلها مخيّلتي في هيئة كاملة، لذلك رحت أستبعدها مع مرور الوقت، وأنساها.

* * *

في أحيان أفكّر أن هناك غلطاً ما في أن ينتقل شخص إلى عمل جديد وهو على قرب خطوتين من عمر الستين. وسيكون الغلط أكثر حرجاً له إن كان الشغل الجديد هذا متأسّساً لتوّه، وما زال المشرفون عليه لم ينتهوا من تأثيث مكاتبه بعد. في هذه الحال سيكون الآخرون، أقصد الموظّفين الذين سيعمل معهم، شبّاناً في بداية إقبالهم على العمل. قد يكون بينهم مَن قطع بعض شوط في الشغل، كأن يكون قد صار في ثلاثيناته مثلاً، أو في آخر ثلاثيناته، لكنّ هذا لن يخفّف عليه شعوره بأنّه كبير بينهم وأنّهم، منذ يوم العمل الأوّل، سيبدأون بتأسيس روابط الزمالة، بل روابط الصداقة، في ما بينهم، مبقين علاقتهم به مثلما كانت في اليوم الأوّل لمعرفته بهم.

ولن تفيد محاولاته لرفع الكلفة بينه وبينهم. لن تقرّبني تلك القُبَل الصباحيّة على خدّ تالا من العاملين معها في الغرفة ذاتها. كما لن تقرّبني منها، هي تالا، قُبلٌ خفيفة لا يكاد معها الخدّان يلتصقان. قُبَلٌ لا تنطبع، وهي ستجري بسرعة وستُختتم بالكلمة التي ستبدو في روتينيّة ذاك التقبيل وبرودته:

ـ كيفك تالا؟

ـ كيفك أستاذ؟

ـ أهلا سليمان، أقول ملتفتاً إلى الشاب الجالس على الطرف الآخر من الطاولة المربّعة، تلك التي ينبغي لها أن تتّسع لأكثر من ستّة موظّفين.

- دُبي خلاص؟

ثلاثة أيّام كانت قد انقضت على وصوله من دبي. قال إنّه أبلغ الذين كان يعمل معهم هناك استقالته، خطّياً وشفهياً أيضاً.

- استعجلتْ، قلت له ممازحاً.

- أنت كمان استعجلت، قال، مبدياً سروره من تكلّمنا هكذا عن شغلنا.

- إذا كان هيدا رأيكن أنا برجع على أميركا، علّقت تالا التي، على الرغم من أنّها لم تعمل في شيء بعد إنهائها دراستها، رأى صاحب الشغل أنّها يمكن أن تكون مروّجة مذهلة للمجلّة.

إميل أيضاً أتى من أميركا. في بيروت أظهر كفاءة منذ أن بدأ بتأسيس المكتب، على الرغم من أنّه، بعد كلّ معاملة أجراها، كان يبدي تعجبّه من الطريقة التي يعمل بها جميع الناس هنا. "تصوّر إني رحت تلات مرات عالوزارة وما عرفت بعد مين اللي بدّو يوقّع على طلب التلفونات. روح لعند فلان، وفلان بيقول مش أنا، طلاع عالطابق التاني، واللي بالتاني ما بيجي عمكتبو... مش معقول...". لكن رغم ذلك استطاع أن يجهّز المكتب بالكثير مما يحتاج إليه. وربما بما قد لا يحتاج إليه أيضاً، إذ كانت خزانة القرطاسيّة طافحة بالأشياء الصغيرة والكبيرة التي رأيت أنّها من حاجات اختصاصيين يعملون في غير مهنتنا.

يوماً بعد يوم ظلّ يبدو لي أنّهم يبالغون في الإعداد للمجلة التي لن تصدر إلّا مرّة واحدة كلّ شهر. حتى إنني لم أعرف تماماً ما الذي سيشتغل فيه سليمان، الذي أُحضر من دبي. صاحب المجلّة يقول عنه إنّه سيتابع المجلّات الأخرى التي تصدر عن البلاد العربية، ويعيّن بعد ذلك موضوعات اهتمامها. كذلك فإنه سيعمل على متابعة موقع للمجلّة، سيؤسّسه هو، على الإنترنت.

كان عليّ، منذ تلك البداية، أن أخبر صاحب المجلّة بأنّه يبالغ كثيراً في توسيع الأشياء التي ليست في أساس إصدار مجلّة. لكنّني لم أفعل. ربما خشيت أن أبدو أمامه، بل أمامهم جميعاً، عتيق الطراز، إذ قد يجيبونني بأنّ المهن جميعها باتت تتأسّس هكذا الآن.

بقيت إذن صامتاً إزاء كلّ ما أراه ممّا يسمّونه فترة التأسيس الأولى، تلك التي وضعوا لها لوحاً جعلوه في مساحة نافذة علّقوه على الحائط في غرفة الاجتماعات. وهم جعلوا يدوّنون عليه المهمات التي ينبغي إنجازها تبعاً للتواريخ المقرّرة لها، والتي كان بعضها يُعدّل، فيمحى بالممحاة التاريخ الأوّل ويحلّ محلّه التاريخ الجديد الذي سيظلّ معرّضاً للتغيير بدوره، وذلك لمعوّقات كثيرة، بينها أن علينا أن نكون مختلفين عن المجلات التي سبقتنا، كما بين هذه المعوّقات ما يلاقيه إميل خارج المكتب.

* * *

قالت سعاد إنّها تعرّفت على شاب، هنا في بيروت، يحمل اسم العائلة ذاتها... عباشي.

أعطت نفسها مهلة ثانيتين قبل أن تلفظ الاسم. ربما من أجل أن تذكّرني، مرّة أخرى، بأنّها لا تفهم كيف أنني ما زلت لم أيأس بعد من بحثي، غير الملحّ على أيّ حال، عن تلك البنت الصغيرة كما تقول.

لكنها مع ذلك لا تتوقّف عن تذكيري بها. في كلّ مرّة تتصل بي، وهي تبدأ مكالمتها بالقول: كيفك... شو لقيتا لصاحبتك، ثمّ، من دون أن تنتظر منّي شيئاً، تنتقل إلى ما تلفنتْ من أجله.

- وين شفتيه؟

- مش مهمّ، شفتو بسهرة عجيبة غريبة كان فيها ناس كتار ما بعرفهن.

- وينو؟

- هلّق ما بعرف... يمكن ببيتو، أجابت مطلقة، من حيث تتكلّم، تلك الابتسامة المعابثة.

- بيعرف دلال... قال إنو بيعرفا؟

- يمكن أهلو بيعرفوها، هوّي بعدو زغير.

- يعني؟

- بالتلاتينات.

- وأهلو هون... ببيروت؟

- ليك... ليك... هوي خبّرني شي رح يعجبك، بس مش رح قولو هلّق. بس نلتقي...

- متل شو؟

- بعدين... بعدين.

لن تقول، أعرف. ستحتفظ بذلك لنفسها الآن، إذ لن تهدر كلّ ما عرفته في مكالمة واحدة على التلفون. ثمّ إنّ هذه طريقتها في إبقاء الصلة قائمة بيني وبينها، وربما بينها وبين الكثيرين الذين تعرفهم: أن تُبقي شيئاً ما معلّقاً يحتاج إلى لقاء، أو إلى اتّصال ثان.

- طيّب، أي متى؟

- أنا بحكيك، يا الله... باي.

أنا أيضاً أحبّ أن يبقى شيء لا أُخبَر عنه. من أجل أن يشغلني التفكير فيه وأن أتسلّى بتخمين ماذا يمكن أن يكون. ثمّ إنّني أستسيغ مجاراة سعاد في ألعابها، فذلك يبقينا، أنا وهي، مشتركين في شيء.

تباطأتُ في إقفال التلفون، إذ تذكّرت مشهد الطريق الضيّقة الموصلة إلى آخر الزقاق، حيث البيوت المتقابلة أو المتداخلة التي لم يسبق لي أن اقتربت منها لأرى، وأنا بينها، في تلك الساحة التي تتوسّطها، كيف هي. لم أجرؤ مرّة على الدخول. لم

أخطُ خطوة أبعد من حيث كانت قد وقفت هي تنتظرني، هذا مع أنّني بقيت سنوات كثيرة أنزل الدرجات الثماني والتسعين لأجد نفسي، هناك على الطريق في الأسفل، مكتفياً بتلك النظرة المتسرّقة إلى الداخل. من هناك فقط، من الطريق التي يسير عليها الجميع تاركين تلك الانعطافة يسلكها ساكنو البيوت وحدهم، بقيتُ أُرسل تلك النظرات المتسرّقة المتعجّلة.

لا أعرف ممّا كنت أخاف. لم أسأل نفسي مرّة. ولم تأخذني قدماي، منعطفتين هكذا بمشيئتهما وحدها، ماشيتين بي وتاركتين إيّاي أتلفّت حولي. دائماً كنت أكمل نزولي إلى الأسفل، إلى حيث ذلك الدكان الذي قلّما يقوم صاحبه عن الكرسي المركون عند مدخله. إنّه أقرب دكّان إلى بيتها، منه كانت تشتري ما تحتاج إليه، قاطعة إليه تلك الخطوات من بيتها. ليس هو الدكّان الأقرب فقط، بل إنّه الدكّان الوحيد في هذا المحيط كلّه. الرجل يعرفها لا بدّ. وربما يعرف اسمها. وحين تقف أمامه، وهو بعد قاعد على الكرسي، يستطيع أن يتخيّل البيت الذي منه أتت.

وأنا كنت أعبر من أمامه، كلّ يوم، مفوّتاً على نفسي فرصة أن أسأله عنها، أن أذكر له اسمها أو اسم عائلتها، فأنتظر أن تضيء نظرته الكسلى ويقول لي، بعد أن ينتهي من التحديق في وجهي، إنّها سافرت مع أهلها.

لم أفعل ذلك أيضاً. فقط ذلك النزول على الدرج الطويل، ومتابعة المشي بعد ذلك الذي أستمرّ فيه حتى الكورنيش الذي أقطعه كلّه، ذهاباً ثم إياباً، لأعاود مروري بعد ذلك من حيث كانت وقفتْ لي.

على مدى سنوات كنت أقوم بذلك كلّ يوم، وحدي، من دون أحد يرافقني، من دون جابر الذي أسرف في لومي حين كان معي. ذلك كان مشواري اليومي. كان يتعبني، أو يتعب قدميّ على الأصحّ، لكنّني، فوقهما، أكون مرتاحاً، إذ أظلّ متوقّعاً شيئاً من

ذلك الأمل القليل. ستأتي لا بدّ، ستأتي ذات يوم. أليس بيتها هذا الذي هنا، إلى يميني وأنا في طريق النزول؟

* * *

ما زلت، وأنا الآن في الثامنة والخمسين، مثلما كنت. أقصد تلك النظرات التي كأنّني أتسرّقها على النساء الثلاث اللواتي لا يغيّر توالي الأيّام شيئاً في مشهدهنّ. النظرات التي سريعاً ما أغضّها، والتي لا أتزوّد منها بشيء جديد. حتى إنّني لم أستطع أن أفصل واحدتهنّ عن الأخرى فأقول مثلاً إنّ هذه التي كانت أمس جالسة في الوسط غيّرت مكانها الآن. ما زلت أخلط بينهنّ، أجعلهنّ متساويات لا تختلف إحداهنّ عن رفيقتيها. لكنني مع ذلك أفكّر أنّ شيئاً ما ينبغي أن يقرّبني من إحداهنّ. من واحدة منهنّ لا أعرف مَن هي، لا أعرف أيّ واحدة هي.

وائل الذي استمرّ من علاقتي به جدالنا حول كلّ شيء، يسمّي ذلك عنصريّة. لو أنّهن لبنانيات، أو حتى عربيّات، كانت ستكفيك نظرة واحدة لتميّز بينهنّ، كما قال لي.

- كمان لازم تعرفن من بعضهن لحتى تعرف مين هيّ اللي لازم تعجبك.

- لحدّ هلّق مش ضروري. بعدني عم لملم منهن أشيا... شغلة من هاي وشغلة من هيديك وشغلة تالتة من هيديك التالتة. لأن ما في واحدة منهن أجمل من التنين الباقيين. التلاتة حلوين قدّ بعض.

- يعني بصراحة أنت مش كتير عنصري. لو كنت عنصري عن جدّ كنت قلت إنّنْ هنّي التلاتة بشعين قدّ بعض.

ربما كان ما أجده جميلاً فيهنّ هو ذلك الشوط الذي قطعنه نحو أن يصرن مختلفات عن بنات بلادهنّ الآسيويّات، اللواتي حملتهنّ الطائرة جماعات من بلدهنّ. كأنّه جرى اختيارهنّ، هنّ الثلاث، من بين جميع الواصلات إلى المطار. "أريد هذه"، قالت المرأة صاحبة المحلّ، مشيرة نحو واحدة منهنّ بإصبع زاده ظفره الملوّن طولاً.

"وهذه أيضاً" قالت عن الثانية، ثمّ... هذه الأخيرة التي تأخّرت في الخروج من صالة التفتيش. لقد جرى اختيارهنّ ليشتغلن هنا، في هذا الجزء الجديد من المدينة، ذاك الذي ينبغي لهنّ أن يكنّ مناسبات له. أن يتلوّن، من أجل ذلك، شعر إحداهنّ بالأحمر الخفيف، وأن ترفعه رفيقتها وتعقده بشريطة يرتفع من فوقها مثل كتلة مهوّشة، وأن يلبسن، هنّ الثلاثة، مشّايات مريحة للوقوف، مثل تلك التي تلبسها الممرّضات في المستشفيات أو العاملات في صالونات الحلاقة النسائيّة.

هذا الفرق بينهنّ وبين البنات اللواتي جئن معهنّ هو الذي أُحبّه؛ ذلك التزيّن الذي أضيف إلى أشكالهنّ والذي قبلتْه أشكالهنّ حتى لم يعدن غريبات عن المحال التي يواجهنها في جلوسهنّ، أو تلك المحال التي أدرن إليها ظهورهنّ والتي تعرض آخر ما استوردتْه المدينة من صرعات.

كذلك فإنّني أحبّ فيهنّ اعتيادهنّ على ما زلت أنا مرتبكاً فيه. في مشواري الصباحي، مارّاً بالمحال المتلاصقة التي تنعطف واجهاتها معي كلّما انعطفت، لا أجدني ناظراً إلى الألبسة التي يعرضونها، بل إلى صورتي المنعكسة في الزجاج. كأنّي ألاحق ظلّي خطوة بعد خطوة وأرى كيف هي مشيتي، وكيف هما ساقاي في المشي. وهل أبدو متعدّياً على موضة البناطلين التي صُمّمت للجيل الذي لم تعد تعجبه البناطلين التي كنت ألبسها من قبل. البنطلون الكحلي المقلّم الذي هو من موضتهم، الذي يُبدي ساقيّ نحيلتين، فيما لا أظنّهما نحيلتين حقّاً، يخجلني، فأسرع في المشي، مسابقاً ظلّي المسرع في ألواح الزجاج الكبيرة.

* * *

- قلهن ما يقولولي أستاذ. أنا اللي لازم قلّن، بعرف، لكنّي بكره لما شوف حدا عمبيقول للناس "بليز بلاها هاي أستاذ".

لكن صاحب الشغل بدا راضياً عن تمييزهم لي. قال لي، مبتسماً، إنّهم يفعلون ذلك من قبيل الاحترام. ثمّ أرسل نحوي نظرة بدا بها كأنّه يتبيّن إن كان يمكنهم أن ينادوني باسمي وحده.

هو أيضاً كان مشمولاً بالكلفة المرفوعة بينهم. كانوا ينادونه طلال، هكذا، باسمه الأوّل، ومن دون أن يصاحبوا ذلك بنبرة تناسب كونه صاحب الشغل. كان في النصف الثاني من أربعيناته، "على أبواب الخمسين" كما كان يقول مذكّراً نفسه، ومذكّراً إيّانا نحن سامعيه بذلك. "كبرنا خلص" يقول، كأنّما من أجل أن يردّ عليه أحد الشباب، فيقول له إنّه ما زال شاباً، وربما يضيف ذلك الشاب كلمة إطراء تطمئنه بأنّه يبدو بالفعل أصغر عمراً ممّا هو حقيقة.

لكنّ قلقه من العمر لا يجعله متلهّفاً لأن نباشر في إصدار المجلّة، بحسب ما رحت أفكّر، عاقداً صلةً بين تمهّله هذا من ناحية وخوفه من التقدّم في العمر من الناحية الثانية. بل إنه كان يفاجئني بهدوئه كلّما تبيّن أن شيئاً ما يؤخّر قيامنا بالخطوة التي نُعدّ لها. حين يقول إميل إنّنا لم نحصل على التصريح الذي ننتظره لموقعنا على الإنترنت، يبتسم، وهو صاحب الشغل، ثم يجد في ذلك التأخير فرصة لنا، لأننا، بحسبه، لم نستكمل تصوّرنا للمجلّة بعد. "يحتاج ذلك إلى وقت... كلّ شيء يحتاج إلى وقت" يقول. وأنا أروح أنقّل نظري بين الشباب الجالسين، هناك على طاولة الاجتماعات، وأقول في نفسي: لمن منهم أستطيع أن أقول إنّ المجلّة هذه ستبدّد كلّ ثروة صاحبنا. ذاك أنّي لم أكن قد خطوت خطوة واحدة بعد نحو أن أكلّم واحداً منهم بمفرده، كأن أقترب من حيث يجلس سليمان مثلاً في غرفة التحرير وأسرّ له بما أفكّر فيه. أشعر أنّني، إن فعلت، سأبدو كأنّني أتقصّد انفراط تلك المودّة بينهم، تلك التي شملت طلال أيضاً، صاحب الشغل، بمناداتهم له باسمه فقط: "طلال"، وبممازحتهم له أيضاً، وإن حول مسائل يحبّ أن يُمازح بها.

إلى حين ما انضمّت شيماء إلى مجموعتنا الصغيرة، ثمّ تبعتها ليندا لتكون العضو الأوّل في الفريق الفنّي الذي لم يكن قد تشكّل بعد، كنت أظنّ أنّ صداقة، أو ربما قرابة عائليّة، تجمع بين طلال وكلّ من إميل وسليمان وتالا. "عرفتو إنّو تالا مش رح تيجي اليوم" يقول، فأعرف أنّ هيئة التأسّي تلك لا سبب لها إلا أنّ تالا مريضة لم تستطع القيام من الفراش. لكن الوافدتين الجديدتين سرعان ما انضمّتا إلى تلك الرفقة، محتلّتين المقعدين اللذين كانا لا يزالان فارغين حول طاولة التحرير الواسعة.

* * *

ليست محالّ الثياب وحدها تتأخّر في فتح أبوابها. في الساعة العاشرة، حين أطلّ من أعلى درجات السلّم الكهربائي الصاعد بي من مرأب السيّارات، يكون العاملون في المحالّ وفي المقاهي المتوزّعة بينها كأنّهم وصلوا لتوّهم وها إنّهم يعطون لأنفسهم فترة استراحة قبل أن يباشروا إجراء التعديلات على ما كانه منظر المحالّ أمس. وهم، على ما يخطر لي، لن يكون عليهم أن يبذلوا جهوداً متعبة في تنظيف الأرضيّة أو في إعادة الثياب إلى مطارحها، إذ لا شيء يدلّ على أن الزبائن ازدحموا عندهم أمس. بدا لي كما لو أنّهم ينشغلون بمنظر الواجهات وتبديل ديكوراتها أكثر بكثير من انشغالهم ببيع بضائعهم. كان وائل، وهو ما زال يعمل في مؤسسة أبحاث كانت بين أولى المؤسّسات التي نقلت عملها إلى هنا، قد قال لي إنّ الحال تكون مختلفة في فترة بعد الظهر. وأنا أحببت أن أُشاهد ذلك. ينبغي لي إذن أن أعود مرّة ثانية إلى هنا، أقصد أن أعود في العصر مثلاً بعد أن أكون قد غادرت بثلاث ساعات أو أربع. ولا أعرف لماذا لم أقم بذلك حتى الآن، على الرغم من أنّني، تعوّدت المجيء كل يوم، ولا أجد المسافة بعيدة أو مزدحمة كثيراً بالسيّارات.

أكون هنا من العاشرة أو العاشرة والنصف حتى الواحدة والنصف. عندها، فيما أنا أعود إلى المرأب الذي ركنت فيه سيّارتي، أروح أحصي عدد الناس الذين أحصرهم

في حدود أعيّنها في المشهد أمامي. لكن هذا لن يعني شيئاً ما دمت أنسى أن أفعل ذلك في الصباح. ثمّ إنني قلّما وصلت بالعدّ إلى آخره. فبمجرّد أن يبدأ رجل بأن يخلي المكان الذي كان فيه، أجدني أتابعه، محاولاً أن أعرف في أيّ اتّجاه سيذهب، وهذا يلهيني عن العدّ ويشتّتني. وأنا لا أعاود الكرّة بعد ذلك، إذ أكون قد تقدّمت في مشيي نحو المجموعة التي عيّنتها وصار بعض من الذين كانوا فيها، اثنان أوثلاثة، ورائي ولن ألتفت أو أستدير لأجمعهم مع أولئك الذين ما زالوا في مجال بصري.

* * *

سعاد مرّة أخرى على التلفون:

- التلاتا المسا شو عندك؟

- ما شي، بظن ما شي، ليش شو عاملة؟

- جايين أصحاب من برّا حبّيت عرّفك عليهن.

- أصحاب مين؟

- ما بتعرفن.

- رح نكون كتار؟

- يعني كام واحد وواحدة من اللي بتشوفن عندي بس نسهر.

تدعوهم إلى السهرات المتباعدة التي تقيمها في بيتها متفرّقين لا شيء يجمع بينهم. منهم من يعمل معها في شغلها الأخير، ومنهم من بقيت على صلة به من عملها السابق، وهناك المرأتان اللتان تقيمان معها في البناية، والرجل صاحب المدرسة الذي لا أعرف كيف تعرّفت به، وزوجان من أقربائها البعيدين، كما تقول حتى فيما هي تقدّمهما لمن لم يسبق له أن التقاهما...

- وهاو اللي جايين من برّة...؟

- رح تحبّهن كتير، بكرا التلاتا بتشوف.

تقصد مثلما أحببت الآخرين في السهرات عندها. هكذا تظنّ، واهمة، إذ ترانا نتبادل الكلام مبقين الابتسام على وجوهنا، فيما هي تظلّ تتجوّل بين الجالسين باذلة طاقة لا تهدأ من أجل أن تحمّي السهرة كما تقول.

- شو؟ الهيئة منّك محمّس.

- إللي عاملة منشانهن السهرة... إللي جايين من برّة، نسوان واللا رجال؟

- بدّك نسوان؟... ليك... ليك، ذكّرتني. الشب اللي حدّثتك عنّو، إلّلي بيقرب صاحبتك، لو بتعرف شو خبّرني...

- إيه، بدّك تقوليلي السرّ اللي خبّيتيه المرّة الماضية.

- فكّرتك نسيت.

- طيّب شو؟ شو خبّرك؟

لم تحاول أن تلاعبني هذه المرّة بتأخير ما ستقوله.

- جبتلّك شي من أغراضها، رح خلّيك تشوف شي كان عندها بالبيت.

- شو... متل شو...؟

- غرض كان إلها هيّي.

- مثلاً...؟

- ...

- غرض شو؟

- البيانو تبعها... البيانو اللي كان إلها.

- وينو؟

- عندو بالبيت، ببيت الشبّ قريبها.

مسرعة أضافت بعد ذلك ما يشبه أن يكون حكاية صغيرة. كأنما من أجل أن أصدّق ما قالته عن البيانو، راحت تذكر لي نتفاً من تلك الحكاية التي لا بدّ أنّها أطالتها لكي

تكون مشوّقة لي. قالت إنّ والد الشاب اشترى البيانو له وهو بعد صغير، أو ربما اشتراه قبل أن يولد له ابن. وهي لا تعرف ممن اشتراه، من أمّها مثلاً، في عودة لها إلى بيروت بعد أن كانت العائلة قد غادرت في ١٩٦٥. أو أنّهم، وهم هناك، أرسلوا أحداً إلى هنا لتخليص أشياء ظلّت عالقة برحيلهم. أو أنّ... " شو... بعدك معي على التلفون؟".

ربما دفعت نفسي دفعاً إلى تخيّل ذلك المشهد الذي تبدو فيه النوافذ التي في الأسفل مرئيّة من الطريق العالية حيث وقفنا أنا وجابر، مغمورة بصوت الموسيقى المتوزّع بينها. أو إنّني اخترعت هذا المشهد، أو ألّفته هكذا بميكانيكيّة أخجلتني، إذ خطر لي أنّ ذلك ممّا يخطر لمن لم يبلغوا عشريناتهم بعد.

- بدّك تجي عالسهرة، خلص، اتفقنا...

لكن ما لم أخترعه، أو أؤلّفه، إصبع دلال وقد وضعته هذه المرّة على واحد من المفاتيح السوداء والبيضاء المتراصّة. إصبعها الذي، على رغم السنوات الكثيرة الكثيرة، ما زال ماثلاً أمام عينيّ، ممدوداً يضغط على لوحة المدرسة التي تُلصق عليها توجيهات الأساتذة لتلاميذهم. إصبعها السبابة، الذي لم أنسه أبداً، ضاغطاً أو كابساً على الزرّ المدبّب الرأس الذي تتعلّق به الأوراق على اللوحة الفلّين. لا بدّ أنّني كنت قريباً منها هناك، بل أكاد أكون ملتصقاً بها، وإلا كيف تسنّى لي أن أرى إصبعها بهذا الوضوح، وبهذا القرب أيضاً، حتى لأكاد أن أمدّ إصبعي، إصبع السبابة ذاته، وأضعه فوقه، ضاغطاً إيّاه مثلما تفعل هي.

* * *

وبين ما نظلّ نتجادل فيه أنا ووائل هو إن كنت متعلّقاً حقّاً بما يختصره هو بقوله: الماضي. "هل ما زلت على علاقة بها؟" يسألني مستدرجاً إيّاي لكي تبدأ مناكفتنا حول التفضيل بين المستقبل الذي ينتظره هو والماضي الذي، بحسبه، أنا عالق فيه. ثمّ

ما أنت فيه ليس الماضي، يقول لي مستعيداً ما يعتبره "تذكّري المَرضي" لدلال. "كان اسمه ماضياً يوم ذهبنا إلى الأردن بسيّارة الميني ماينور، أتذكر؟ في ذلك الوقت كان تذكّرك لها اسمه ماض، أو إنّني أقبل معك بأن نسمّيه كذلك. لكن الآن، كم سنة، كم عقد... كان ذلك في ماضي الماضي الماضي... إلخ".

تلك كانت مناكفاتنا معاً، أنا وهو. يتكلّم هو وأتكلّم أنا من بعده: "لكن يا وائل كيف يمكنك أن تحبّ، أنت رجل المستقبل، أو تنتظر، شيئاً لم تره ولا تعرف ماذا يكون. في مناكفاتنا هذه، التي نتّفق على أنّها أشبه بمباراة زجليّة بيننا، يكون كلّ منّا يقول ما هو متعلّق به فعلاً. حتى إنني أستطيع أن أتخيّل ماذا ينتظرهو من بيروت، الجديدة كلها، التي تسير في شوارعها سيّارات هي على شاكلة تلك التي نشاهد نماذج منها في الأفلام التي ترينا كيف سيكون العالم من بعدنا، وهو، وائل، يسير هناك، متمهّلاً، واضعاً يديه في جيبيه، ومنقّلاً نظره بين البنايات المرتفعة حوله، فيما زجاج البنايات النظيف تنعكس عليه السيّارة المستقبليّة الأشكال والأشجار التي شذّبوا أغصانها لتظلّ متساوية الطول، وكذلك تنعكس عليه بنايات الزجاج الأخرى التي تقابله وتحيط به.

الزجاج النظيف، ذاك الذي أسير بين ألواحه المتطاولة، التي إمّا أنهم ينظّفونها الآن، فيما أنا أمرّ من بينها ذاهباً في الصباح إلى شغلي، أو أنّهم قد انتهوا من تنظيفها لتوّهم. أكون مثل وائل منجذباً إلى ذلك الالتماع، بل وأكون مصدّقاً ذلك الإغراء الذي يأتيني منه بأنّه ما زال ممكناً لي أن أكون جديداً مثلما هو جديد. أصدّق بأنّني سأكون كذلك، لكن ليس الآن. ليس في هذه اللحظة أقصد، بل في ما بعد، في وقت سيأتي، إذ إنّني الآن لست مستعدّاً لذلك، لست مستعدّاً بعد.

* * *

حين شاهدتني وقد صرت في المدخل، أسرعت إليّ مارّة بين المقاعد التي أسنَدتها إلى الجدران لكي يسع الصالون ضيوفها الكثيرين. لم تنظر إلى ما أحمله بيدي. فقط

أخذته منّي ووضعته إلى جانب العلب والقناني التي لا تزال موضوعة في أكياسها.

- تعال... تعال، قالت فيما هي تمسك يدي، على جاري عادتها، وتتقدّم خطوات قبل أن تفلتني لأتدبّر أمري في إلقاء التحيّة على الضيوف ومصافحتهم. هم أنفسهم الذين كانوا هنا في السهرات السابقة، وهي نفسها تلك النظرات التي تتعمّد المفاجأة حين أصل إلى أصحابها في مصافحتي. وسيكون عليّ مع ذلك أن أكمل دورتي عليهم جميعاً ما دمت قد بدأتها، من حيث أوصلتني سعاد إلى أوّل الجالسين. لكنّني حين وصلت إلى من قدّرت أنّهم الأصحاب الذين قدموا من الخارج، تقدّمت سعاد نحونا لتتولّى بنفسها تعريفنا. لكنّها اكتفت من ذلك بتقديمي لهم وعادت لتنشغل بضيوفها.

كانوا امرأتين ورجلاً واحداً، مبالغاً في لطفه حتى بدا، لكثرة ما أحنى رأسه وظهره، كأنّه يؤدّي مراسم إجلال في مناسبة عسكرّية. وإذ لم أعرف إن كان عليّ أن أبدي قدراً مماثلاً من الاحترام، اكتفيت بأن أحنيت رأسي مرّتين متتاليتين، ثم رحت أنظر حولي كأنّني أبحث عن شيء. لكن سعاد التي لا تتوقّف عن الدوران بين الجالسين، أشارت لي، من حيث تقف، إلى المقعد الفارغ بجانب الرجل. ثمّ، وفيما أنا أستدير لكي أجلس، غمزتُ لها بعيني كأنّي أعدها بقصاص على فعلتها، ستناله منّي لا بدّ. وهي، من هناك، أعادت إليّ تهديدي بنظرة ملاعبة، فيما الرجل الذي أنهى ترتيب نفسه على المقعد ينتظر أن أبدأ بمحادثته.

وربّما خطر لي أن أقاصصه هو أيضاً، لا لسبب إلّا لأنّني أُجلست إلى جانبه من دون رغبة منّي. لم ألتفت نحوه، بل رحت أتطلّع حولي متجنّباً النظر إليه. من بعيد سألتني سعاد، بحركة من يدها، ماذا سأشرب. أيّ شيء، أجبتها، فيما أنا أهمّ بالقيام لأصبّ كأسي بنفسي. وهناك، قرب القناني والكؤوس الفارغة، سألتني إن كنت لم أنتبه إلى المرأة الجالسة بقربه. ثمّ قالت إنّها كانت قد هيّأت لجلوسي هناك من قبل. لم أكن في مصافحتي المرأة قد نظرت إلى وجهها بما يكفي. فقط تلك النظرة التي يغلب

عليها الابتسام المصطنع حين نكون نتعرّف إلى من نصافحه. انظر إليها الآن، لكن فيما أنت تصبّ الكأس، قالت سعاد بادئة ابتعادها عنّي. لكنّها عادت إليّ لتضيف أنّها ستجعلها تقف من أجل أن أرى كيف هو جسمها

- يعني، إنتي عزمتيها علشاني؟

- أنا قلت يمكن... يمكن تظبط.

التفتّ إليها جالسة هناك. كانت تنظر إلينا في ما بدا لي، وإن بنظرة غير مركّزة، كأنّنا نحن دخلنا في المجال الذي أوقفتها صفنتها عنده.

- وهي تلائمك لأنّها أردنيّة.

من فور ما عدت حاملاً كأسي سألت الرجل ذاك إن كان يحبّ أن يشرب شيئاً. كان سطح الطاولة الصغيرة التي أمامه فارغاً إلا من محرمة ورقية رتّبت بعناية. وإذ استدار نحوي معتبراً سؤالي بداية لأن نبدأ تحادثنا، عدت وسألته أن يسمّي لي ما يحبّ أن يشربه لأقوم بإحضاره. ثمّ، متابعاً المهمّة التي اقترحت القيام بها، سألت المرأة التي إلى جانبه إن كانت تريد أن تشرب شيئاً. لم تجب بأكثر من ابتسامة مجاملة أنهتها بحركة شاكرة من رأسها. ثمّ، إلى تلك المرأة الثانية، التي كان عليّ أن أمدّ جسمي لأصير قريباً إلى أن تسمعني. قالت لي، بعد أن أمهلتْ نفسها لاختيار الكلام الذي ستقوله، إنّها تنتظر كأس العصير الذي كانت طلبته.

بدا العصير محبطاً، دافعاً إياي إلى أن أرتدّ بجسمي قليلاً إلى الخلف. لكنّني، مع ذلك، قلت لها، متجاوزاً التحفّظ الذي يفرضه وجود الرجل والمرأة بيني وبينها.

- بس عصير؟

وهي نظرت إلى كأس الويسكي المليء بالثلج والذي، برغم تجرّئي على قول ما قلته، وجدتني أخفضه ليكون أقلّ ظهوراً.

ثم، إذ قمت لأحضر لها العصير الذي طلبته، رأيتها تقوم هي أيضاً، تاركة الرجل والمرأة ساكتين كأنّهما، بتلك النظرة الجامدة، يترقّبان ما سيحدث أمامهما.

لكنّها لم تبتعد إلا خطوة أو خطوتين عن مقعدها. كأنّها لم تقم إلّا لتواكب مبادرتي المجاملة ولكي لا تكون جالسة منتظرة حين أعود حاملاً كأسها بيدي. كان عليّ أن أسرع إذن، لكي لا أطيل وقوفها هكذا، متقدّمة تلك الخطوة أو الخطوتين عن كرسيّها. وقد أنجدني ظهور الخادمة، داخلة إلى الصالون وحاملة بيديها صينيّة مُلئت بكؤوس متنوّعة عديدة.

لم تتأخّر سعاد عليّ. أومأت إليّ بيدها من حيث وقفت مستقبلة ضيفين جديدين، فقمت ماشياً إليها

- شو؟

- صعبة، يمكن لو عزمتيها لوحدها كان ممكن...

- بس إنت ما جرّبت شي لحدّ هلّق... لازم تنطر شويّ.

بدا لي أننا، أنا وهي، نشترك في مهمّة لا سبب يدعونا إلى القيام بها. لكنّ سعاد، وهي التي تحبّ أن تبدو أنّها هيّأت لكلّ شيء، قالت لي أن أنتظر... أن أنتظر حتى تبدأ السهرة بعد قليل.

كان كأس العصير ملآناً على الطاولة الصغيرة التي إلى جانبها. وأنا عدت إلى جلوسي بجانب الرجل الذي أدركت أنّه سيظلّ ساكتا لأنّي أحبطت محاولته لأن يبدأ الحديث بيننا. أنا الذي يجب أن أكلّمه هذه المرّة، وإلّا سيكون محرجاً لي أن أعود إلى مطّ جسمي أمامه وأمام المرأة التي قدّرت أنّها زوجته.

- جيتو سوا من الأردن؟

- نحنا؟

- أيوه.

- سوا، نحنا والدكتورة، جينا سوا.

كان ذلك أكثر من كاف لأعرف الصلة بينهم هم الثلاثة، كما كان مهيّئاً لي لأنتقل مباشرة إلى أن أكلّمها:

- دكتورة بأيّ اختصاص؟

حين أجابت بأنّها طبيبة، لا أعرف لماذا خطر لي أنّ عليّ أن أُعيد النظر في التوصيف الذي رسمته لهم، هم الثلاثة. ذلك كثيراً ما يحدث، فكّرت: أن نخطئ في معرفة الناس معتمدين على ما يوحي به لقاؤنا الأوّل بهم.

كان الرجل طبيباً هو أيضاً. وحين قال إنّه درس الطب في لندن، أرجعت على الفور انحناءه المبالغ ذاك إلى دماثة الإنكليز.

- الدكتورة درست بلندن كمان؟ قلت متوجّهاً إليها،

وهي اكتفت بأن أطرقت موافقة.

أسكتت سعاد الأصوات الطالعة من هنا وهناك بطرقات رنّانة على كأسها. عرفت أنّها ستبدأ البرنامج الذي أعدّته لسهرتها. ثم رفعت كأسها إلى الأعلى لنشرب نخب سعادتنا بلقاء بعضنا بعضاً، ”على رغم أن لا شيء يسعد في ما يحصل حولنا“. ثم، فيما هي تقدّم لوصلتها الأولى بقولها إنّ من سنسمعه الآن استطاع أن يكون عالماً وفنّاناً معاً، بدا لي أن الرجل الجالس إلى جانبي، الطبيب المتخرّج من لندن، بدأ بإعداد نفسه لكي يقوم، محيّياً الساهرين، في اللحظة التي يُذكر فيها اسمه.

دائماً، في سهراتها، سيكون على الضيف الجديد أن يقدّم شيئاً ممّا يعرفه أو يجيده. ”هذه المرّة سنسمع عزفاً على تلك الآلة التي بحسب ما أظنّ تناسب العلماء أكثر مما تناسب الفنانين“ قالت متوقّفة عند اسمها: ”القانون“. وإذ قام الرجل ليحضر آلته من حيث أودعها، علت موجة تصفيق متردّدة، وأنا رحت أتساءل إن كان قد حملها مع أغراضه آتياً بها من الأردن.

وفيما هو يعود بها، دعته سعاد إلى أن يجلس هناك، حيث كانت تقف، من أجل أن يراه الجميع. وحين بدأ بتمرين أصابعه مستعداً ليبدأ عزفه، رحت أفكّر في مقعده الخالي، ذاك الذي ينبغي ألا يظلّ منتظراً مجيئه ليعاود جلوسه عليه، وأظلّ أنا منفصلاً عن تلك المرأة بذلك الحاجز الذي يقيمانه لصقي، هو وامرأته.

* * *

على الأنغام التي تطلعها أصابع الرجل راحت سعاد تدعو النساء، الأصغر عمراً من سواهنّ، إلى الرقص. كانت تلحّ عليهنّ، بل وتكاد تجرّهنّ جرّاً إلى تلك المساحة التي في الوسط. وهنّ، بعد أن يستجبن ويقمن، بل ويندفعن إلى رقص يكون سريعاً من أوّله، لا يلبثن أن يبطئن، إذ يجدن أنّ الموسيقى لا تحمّسهن. وقد أطال الرجل وصلة عزفه، وبدا أنّه مستمرّ فيها، إذ لم يكن منتبهاً لما هو جار حوله. ومن أجل أن يرفع عينيه عن الآلة التي ينقّل تحديقه بين أوتارها، راحت سعاد تقوم بحركات الرقص أمامه. ثم خطر لها أن تدعو امرأته إلى ذلك. وقفت أمامها، مؤدّية حركة الرقص ذاتها، وراحت تدعوها بمدّها يديها الاثنتين. فجأة، بمجرّد أن نهضت المرأة عن مقعدها، أصبحت المسافة ممتدّة وخالية إلى جانبي.

- سعاد بعرفها، مش راح ترضى إلّا بترقيص الكلّ، قلت مادّاً جسمي من أمام المقعدين الخاليين

- أنا لا، قالت مصاحبة ذلك بحركة من يديها تعني أنّ ذلك مستحيل.

كنت أحتاج إلى جملة أخرى أقولها حتى يصير انتقالي طبيعياً إلى الكرسي الذي خلا لتوّه. جملة واحدة تردّ هي عليها بجملة أخرى.

جملة واحدة لم أجدها، أقصد لم أجدها في الوقت اللازم لقولها، الوقت الذي سريعاً ما سينفد لأنّي لن أستطيع أن أبقى متخّذاً هذا الوضع، متمدّداً فوق المقعدين.

ما رأيت أنّي يجب أن أفعله هو القيام، من دون تلك الجملة الضروريّة، والجلوس إلى جانبها.

- هيك أفضل، قلت.

- ...

- أحياناً لازم الواحد يعمل الأشيا بلا مقدّمات.

بهذا فقط أستطيع أن أتقدّم خطوة واسعة إلى الأمام. لا أقصد قيامي لأجلس بجانبها، بل أقصد قولي لها ما قلته.

وهي ابتسمت، بل وأظهرت عن تلك النظرة المستلطفة، النظرة التي تذهب إلى أبعد من مجرّد رؤية الوجه القريب إليها، النظرة التي تُبدي الإعجاب والاستعداد، رغم أنّها لم تدم أكثر من ثانية واحدة.

* * *

سعاد، التي لم تستطع إبقاء الأخريات معها في تلك الحلبة، انتقلت في رقصها البطيء إلينا، محتفلة بجلوسنا معاً. كانت المرأة الأخرى، بعد عودتها، قد ابتعدت، جالسة في المقعد الذي كان مقعدي. وأنا، مزهوّاً بما حقّقتُه، رحت أصفّق مقرّباً يديّ إلى سعاد. كانت تلك تحيّة أدّتها لنا، أو لي، ثم انتقلت بعدها، مستمرّة في الرقص البطيء، إلى أن تكمل دورتها على الجالسين.

- راح تبقو لإيمتى ببيروت، سألتها وأنا لا أزال عاجزاً عن اختراع كلام أقوله.

- لسّه خمسة أيّام، أجابت، فيما أنا أغتنم وقت التفاتها القليل لكي أتبيّن تفاصيل وجهها.

- وين نازلين؟

- بالأوتيل.

من السابق لأوانه السؤال عن اسم الأوتيل. ذلك قد يعني أني مسرع في الوصول إليه.

ما أحتاج إليه نظرة أخرى إلى وجهها. أن تعاود الالتفات إليّ لأرى إن كان ذلك التغضّن الذي هناك في الوسط، بين الحاجبين، سيظلّ كما رأيته في النظرة التي سبقت. ومن أجل ذلك لم أجد إلا أن أعود إلى ما استنكرت قوله قبل لحظة:

- الأوتيل بشارع الحمرا؟

- بالحازمية، قالت مديرة وجهها إليّ بنصف التفاتة.

يدها إذن، الممدودة على تنّورتها، المطليّة الأظفار بلون زهريّ خفيف. اليد التي عادة ما تغري بأن نمدّ إليها يدنا، لم تجتذبني هذه المرّة. لم تبدُ لي أليفة. ربما عليّ أن أعيد النظر إلى الوجه أوّلاً، ليس مرّة واحدة فقط، بل مرّات كثيرة.

- العشا جاهز، تفضّلوا، أعلنت سعاد.

عندها فقط توقّف العازف عن عزفه. رفع عينيه ناظراً إلى حيث نجلس، نحن وامرأته، ثم نهض ليمشي في اتّجاهنا. عندما صار قريباً من الكرسي الخالي بقربي التفت إليّ وقال إنّه تعب. للتوّ رغبت في أن يكون بقربي من أستطيع أن أضحك وأضحكه على ذلك.

- غيّرت مطرحي، معليش؟ سألته.

- لا لا أبداً، قال فيما هو يضع آلته المسطّحة على الكرسي الخالي.

- تفضّل... تفضّل قبل ما يخلّصوا الأكلات.

قمت، مستحسناً تلك الجملة التي، على عاديّتها، التمعت كاشفة عن ميل إلى المزاح كان مخفيّاً في هيئة الرجل.

* * *

ذلك التغضّن بدا أقرب إلى خطوط صغيرة غائرة تجمّعت بين حاجبيها. وفيما أنا

أدعوها لتتقدّمني بالوصول إلى مائدة الطعام، ظهرت لي تلك الخطوط مثل ندوب خلّفتها جروح صغيرة. كان الرجل الطبيب قد خطا بدوره خطوة أخرى للتقريب بيني وبينها. قال، داعياً إيانا لنقوم نحن الاثنين، إنهم يأكلون الأشياء الطيّبة أوّلاً. بل وإنّه انتظر أن نسير قبله إلى هناك، هي أوّلاً، ثمّ أتبعها أنا. خطر لي وأنا واقف بينهما أمام الطاولة التي صفّت صحونها في خطّ مستقيم أن أخلي مكاني ذاك، لدقيقة واحدة، وأذهب إلى حيث سعاد لأجيبها عمّا تنتظر أن أقوله عن المرأة. "إنّها أجمل حين نراها من بعد"، هكذا بكلمات قليلة أقولها مسرعاً لئلا أتأخرّ عن المكان الذي أخليته.

وقد قمت بذلك ونحن عائدون بالصحون إلى مقاعدنا. دقيقة واحدة، قلت معتذراً، ثم مشيت باتّجاه سعاد التي أعرف أنّها لن ترى، مثلي، أثر تلك الخطوط فادحاً. لن ترى أنّها تشوب شكلها إلا بذلك القدر الصغير الذي تحتلّه في الوسط بين حاجبيها. لذلك لم أقل لها إلا تلك الجملة التي كنت هيّأتها: إنّها أجمل عن بُعد. وهي قالت لي، مبقية بعض نظرها على حركة الضيوف: "يصحّلك". ثمّ أضافت بأني لم أعرف المرأة بعد، ناصحة إيّاي بأن أحادثها أوّلاً.

حين عدت رأيت أن المقعد الذي إلى جانبها تُرك لي خالياً. ربما استعجل الطبيب الجلوس واستعجلتْ هي أيضاً من أجل أن يفهماني أنّ مقعدي هو هنا. قالت لي بعد انقضاء دقيقة على جلوسي إنّني أستطيع أن أضع صحني على الطاولة، ثمّ أزاحتها قليلاً إلى ناحيتي لتصير قريبة منّي. وأنا ابتسمت، إذ انتبهت إلى أنّني كنت مرتبكاً بما أحمله. وهي ابتسمت أيضاً، ثم قالت لي إنّني بالكاد وضعت شيئاً في صحني.

في تلك اللحظة التي تنقلب فيها الأدوار فتصير المرأة مقبلة بعد أن كانت منتظرة، نروح نسائل أنفسنا ماذا ينبغي لنا أن نفعل. هل نبقى مستمرّين في ما كنّا فيه معها أو نبدأ بالتراجع؟ هي فعلت ذلك. في تقريبها الطاولة إليّ واستعدادها لأن تقسم مساحة سطحها بين الصحنين، تكون قد وضعت نفسها في ذلك الامتحان. لكن لا يحسن بنا

أن نبدأ بالتراجع على الفور، إن كان التراجع خيارنا. بل ربّما يكون من الأفضل أن نتقدّم قليلاً إلى الأمام، موهمين مَن كنّا نتقرّب إليها أنّنا ما زلنا كما كنّا تجاهها:

- شو عمتفكّرو تزورو بلبنان؟

ذلك من أجل أن أبدو أنّني ربما أرغب في مرافقتهم.

- بعد ما قرّرنا على شي، بس نحنا مش أوّل مرّة هون، دايماً منيجي.

- سوا؟

- ...

- قصدي بتجوا سوا؟

ضحكتْ، لتفهمني أنّهم ليسوا دائماً هكذا ملتصقين بعضهم ببعض.

وضحكتُ أنا أيضاً، مسلّماً بغباء سؤالي.

ثم، ولكي تزيد ذلك وضوحاً:

- أنا عشت سنتين ببيروت.

- شغل؟

هزّت رأسها موافقة. كانت تنظر إلى الصحن على الطاولة محرّكة فيه شوكتها، ومقسّمة كتلته إلى قطع أصغر.

مرّة أخرى عادت سعاد لتقف بيننا، سائلة الطبيب وامرأته إن كان الطعام أعجبهما، ثمّ التفتت إلينا معاً قبل أن تقول للدكتورة:

- عميزعجك شي؟

- شوي، قالت مبتسمة ومديرة وجهها إليّ.

وأنا، لكي نبقى في نوع المزاح ذاته، قلت لسعاد:

- إنتي اللي عمتزعجينا.

- طيّب رايحة... أنا رايحة.

ما قد تفهمه من كلامي على أنّه رغبتي في التقرّب منها ينبغي عليّ بسرعة أن أتراجع عنه. كأن أقول مثلاً إنّني هكذا أحبّ أن أغيظ سعاد وأمازحها. بذلك نعود أنا وهي إلى ما كنّا نتحادث فيه من قبل، أي عن شغلها في بيروت وقضائها السنتين فيها.

- كنت عمتعلّْمي بالجامعة؟

- لا... لا كنت مندوبة شركة مركزها عمّان.

خطرت لي المدينة، عمّان، أو مشاهد من أبنيتها وشوارعها في ١٩٧٣، ثمّ خطرت لي سباحتنا في البحر الميّت، وسيّارة الميني الصفراء، وقولي لوائل ونبيه إنّ عائلة عباشي قليلة هنا، إذ ليس في دليل التلفون إلّا سبعة أسماء أو ثمانية منها.

- إنت مش عمتاكل، قالت لي كأنّما من أجل أن أجيبها بأنّها ليست تأكل هي أيضاً، إذ لم تكن تفعل إلّا تقسيم القطع إلى أحجام أصغر فأصغر.

ها هي سعاد تقف من جديد في المكان الذي تعلن فيه الفقرة التالية من برنامج سهرتها. ستقول، على جاري عادتها بعد أن ينهي المدعوّون عشاءهم، إن سهرتنا ما زالت طويلة، وإنّ علينا ألا نبدأ بالتثاؤب منذ الآن.

وفيما أنا أفكّر في طريقة للخروج قالت لي الدكتورة، مستعدّة لما سنشاهده أو نسمعه، أن أعطيها صحني لتأخذه إلى هناك. استنكرت ذلك ومددت يدي إلى صحنها لأقوم أنا بتلك المهمّة. بدا ذلك التغضّن أكثر قسوة فيما هي تبتسم، رافعة الصحن نحوي بيديها الاثنتين. وقد علق وجهها في مقدّمة رأسي، مبتسماً وعابساً كما هو، حتى إنّني فكّرت، فيما أنا أخطو لأصير قريباً من حيث تقف سعاد، أنّني لم أقم أبداً بذلك التمرين الاعتيادي الذي أجدني فيه متخيّلاً إصبعيّ تشدّان جلد وجهها من طرفيه لكي يملس جبينها وتختفي الغضون. وهناك، بعد أن وضعت الصحنين على الطاولة، وقفت على بعد خطوتين أو ثلاث من سعاد منتظراً انتهاءها ممّا ستعلنه.

- أنا رايح، قلت لها من لحظة ما صارت واقفة أمامي.

- ليش، تخانقتو؟ قالت ملاعبة.

وأنا أجبتها، ملاعباً أيضاً ومعلناً لها فشل خطّتها: "ما في نصيب".

وإذ بدأت فعلاً بالخروج ملازماً خطواتها مع خطواتي، قالت لي إنّني يجب أن أستأذن المرأة أو أودّعها على الأقل. لكنني أكملت مشيي إلى الباب، مبقياً إيّاها ماشية معي.

بدت غاضبة أمام الباب الذي مددت يدي لأفتحه. قالت لي إنّني أحرجها هكذا، فعلى الأقلّ يجب عليّ أن أقول لها، وكذلك للناس الذين معها، إنّني تشرّفت بمعرفتهم.

- بعدين... بعدين، قلت فيما أنا أستدير باتجاه الباب الذي كنت فتحته وأبقيته مفتوحاً.

لكنّها رضيت حين صرت في الخارج، بل وأظهرت ابتسامة رافقت بها قولها لي:

- ماعجبتك أبداً؟

وأنا، الذي لم أعد مستعجلاً بعد أن صرت وراء الباب، رفعت لها حاجبيّ دلالة على أنّها لم تعجبني.

- يصحّلك، قالت مرّة أخرى، ثمّ أضافت شيئاً مثل: ماذا أظنّ نفسي، أو عليّ أن أنظر إلى نفسي أولاً، قاصدة أشياء كثيرة فيّ، بينها شعري الأشيب لا بدّ، وانتفاخ بطني وعمري الذي على عتبة الستّين. وكانت ستكمل لو لم يذكّرها بضيوفها الصوت الذي ارتفع قويّاً من حنجرة الرجل الذي كانت قد دعته إلى الغناء. وأنا قلت لها، مشجّعاً إياها على الدخول: بكرا... بكرا... بكرا منحكي.

في المصعد المضاء النازل بي إلى الأسفل شعرت بنفسي خفيفاً ممّا كان يثقل عليّ وأنا هناك في داخل البيت. بل وإنّني استأنست بموجة الكره الخفيفة التي أحسستها تجاه المرأة. كأنّني، بخروجي المسرع هذا، المتنصّل والذي هو أشبه بالهرب، عاقبتها العقاب الذي تستحقّه.

* * *

- إنت بلا ذوق، طلع صوت سعاد من سمّاعة التلفون مفتعلاً نبرة الجدّ.

وأنا، متجاوباً مع نبرتها:

- إنت اللي بلا ذوق.

- ...

كنت أنا من اتّصل هذه المرّة.

- بقلّك ليش إنت اللي بلا ذوق.

- ...

- لأنّو بدّك تعرّفيني على واحدة بتناسب واحد متلي عجوز وختيار. إنت شفتي حالك كيف حكيتيني. يعني لأني ختيار لازم إقبل بكلّ شي؟

- برجع بقلّك يصحلّك.

ولكي أوقف استرسالنا في تلك المعاتبة، قلت:

- أنا كنت مفكّر إنّك شايفتيني شبّ حلو.

- شبّ؟... وحلو كمان؟

من بين كلامها الذي أحمله دوماً على محمل الخفّة والتسلية عبرَتْ تلك الجملة التي رأيتها دالّة على نضج لطالما أنكرته عليها: "إنت لازم تعرف إنّو النسوان متل ما بتحبّهن ما بقا يصحّولك".

أعجبني أيضاً تمكّنها من صياغة الجملة بكلماتها الصائبة هذه، وفكّرتُ للحظة أنّها جاءت بها من احتياطيّ عندها لم أرغب يوماً في معرفته.

وقد أبقاني قولها ذاك بلا جواب. كأنّني انتظرت أن تكمل مما كانت تخبّئه:

- على كلّ حال إنت مرتبط.

كان ذلك تهكّماً على "علاقتي" بدلال. وأنا، لكي أعود إلى إغاظتها، قلت لها إن دلال على الأقلّ لا تزال شابّة صغيرة.

- إنت هيك بدّك... ١٦ سنة كان عمرها إنتو وبالمدرسة؟

- ١٦، وإيديها حلوين ووجهها متل القمر.

* * *

كان عليّ أن أحتفظ بصورة لدلال. كنت سأفعل ذلك لو سمح لها مدير المدرسة بأن تأتي إلى الحفلة التي أعددناها أنا ونبيه خصّيصاً لأجلها. قال المدير إنّ أهلها ليسوا هنا في لبنان، وهم تركوها في القسم الداخلي على مسؤوليّة المدرسة. وهو أصرّ حين صرنا نلحّ أنا ونبيه. كنّا قد اشترينا أشياء كثيرة وضعناها في صحون البلاستيك، وأحضرنا أسطوانات للبيك أب الذي استعرناه من أنيس رفيقنا في الصفّ. صرنا نقول للمدير، لنجعله يسمح لدلال بالمجيء إلى السهرة، إنّ المس جرجوعي ستكون معنا في السهرة، وكذلك سيكون معنا الأستاذ نعيم. بل ودعوناه هو أيضاً ليكون معنا. "لا... يعني لا..." قال لنا فيما هو يستدير عنّا ليعود إلى مكتبه في الإدارة. الحفلة التي أقمناها من أجلها لن تكون فيها. وكان عليّ ألّا أُظهر خيبتي فيما أنا أمشي مرافقاً مسّ جرجوعي القصيرة السمينة التي تمشي خطوة واحدة في وقت ما أكون مشيت أنا خطوتين. بل وكان عليّ أن أبدو مبتسماً لها على طول الطريق، لأنّي تلميذها ولأنها قبلت أن تكون معنا في سهرتنا. وصرت أقول لها إنّ نبيه سيجيء بالأستاذ نعيم الذي لا يعرف هو أيضاً أين هو البيت. كنت أبتسم وأحكي وأنا أرغب في أن أسكت لأفكّر كيف أنّني لن أعود أرى دلال أبداً بعد اليوم، كما لأفكّر أنّ التلاميذ في كلّ المدارس يقيمون حفلات في نهاية السنة، فلماذا يمنع مديرنا ذلك عنا؟ وأفكّر في أنّي لن أعود إلى رؤية دلال أبداً. سيسفّرها المدير إلى أهلها في الأردن، ويمكن أن تعود من هناك ويمكن ألا تعود. كان عليّ أن أحتفظ بصورة لها. كنت سألتقط لها صوراً هناك، لو

أتت إلى الحفلة. كنت سأصوّرها بالكاميرا التي استعارها نبيه من أنيس. أصوّرها وأصوّر الحفلة أيضاً. كان لدينا فيلمان اثنان نركّب الثاني في الكاميرا حين يمتلئ الأول بالصور. لكنّنا قضينا الوقت نصوّر أنفسنا مع المسّ جرجوعي والأستاذ نعيم. حيناً هما في الوسط ونحن حولهما وأحيانا كنّا نفصلهما فيقول أحدنا للمسّ جرجوعي إنّه يحبّ أن يتصوّر معها بمفرده، ثم يقول الشيء نفسه للأستاذ نعيم...

كان عليّ أن أحتفظ بصورة لها، وذلك لكي أظلّ متذكّراً وجهها كيف هو. أقصد كما هو حقيقة، إذ أحسب أنّ وجوهاً كثيرة شاهدتُها في هذه الأعوام المديدة مرّت فوقه بل والتصق بعضها به يوماً أو يومين قبل أن ينفكّ عنه. وجوه كثيرة. وجه فوق وجه فوق وجه وهكذا. أو ربّما حدث ذلك كما يحدث للحروف حين يضعف لونها على الورق، سنة بعد سنة بعد سنة. أكون كأنّني زوّدت وائل بحجّة ضدّي كلّما قلت له إنّني لم أعد أذكرها تماماً كيف كانت. يقول لي، مستعملاً ما قلته له عن ضعف الحروف على الورقة، إنّ عليّ أن أستعجل إذن قبل أن يتلاشى الحبر كلّه ولا أعود أرى على الورقة شيئاً. وأنا أجيبه، مجارياً إيّاه في تهكّمه، لكن إصبعها يا وائل، إصبعها لم يزل كما هو، واضحاً أمام عينيّ كأنّني أراه الآن، بل أتخيّل أنّني أستطيع أن ألمسه وأحسّ به كيف سيكون حين أُطبق كفّي عليه.

* * *

اتّصل بي طلال صاحب المجلّة من لندن ليقول لي أن نذهب أنا وإميل لنرى كيف هو مكتبنا الجديد. "لكن انتبه"، قال لي، "التبريد أوّلاً، ولازم تخلّيهن يشغّلوه وإنت عندهن بالمكتب". لم يكن بعيداً عن مكتبنا الأوّل. لا أكثر من عشر دقائق مشيناها منعطفين إلى مفارق لا يبعد أحدها كثيراً عن الآخر. وحين وصلنا استوقفني إميل، بل وطلب مني أن أتراجع خطوتين أو ثلاث إلى الخلف لكي أشاهد المبنى كيف هو من الخارج. كان جديداً، وقد أدخلت على هندسته تعديلات ليكون شبيهاً بالمباني القديمة

لكن مختلفاً عنها بكونه جديداً. كان إميل قد جاء إلى هنا مرّة أو مرّتين من قبل. وحين انتهينا من النظر إلى المبنى وإلى البنايات المتلاصقة معه في صفّ واحد، قال لي إميل إنّ صاحبنا أحبّ هذه الأبنية الجديدة، ثمّ إنّه رأى مكتبنا صغيراً لا يتّسع لنا، خصوصاً مع الموظّفيْن الجديدين، وهما زوج وزوجته، اللذين حتى حينه لم أكن قد شاهدتهما إلّا مرّة واحدة.

المسؤول عن تأجير المكتب كان قد سبقنا إليه وهو ترك لنا بابه مفتوحاً. كان الهواء البارد، بل المثلج، يصل حتى سفرة الدرج، فرحت أنا ، من فور خروجي من المصعد، أحاول الاحتماء من ضرره بوضع يديّ الاثنتين على معدتي. "شو...؟ قوي إيه...؟" قال لي الرجل الذي أطلّ من الداخل، ثم أفسح لنا الطريق لندخل إلى القاعة الواسعة التي توزّعت في أنحائها طاولات ومقاعد كثيرة. قال لي إميل حين رآني أجيل النظر بينها إنّ من كانوا هنا قبلنا لم يمكثوا أكثر من شهر، ثمّ أضاف إنّ صاحبنا سيستبدل الأثاث كلّه، مع أنّه قد يناسب نوع شغلنا. وحين قال لي كم هو المبلغ الذي سيدفعه طلال شهريّاً للشركة مالكة المبنى أطلقت من بين شفتيّ صفرة مستهولة. ثمّ قلت لإميل إنّ صاحبنا يظنّ أنّ القرّاء يأتون عادة إلى مكاتب المجلّات ليشتروا منها أعدادهم.

وقد علّق إميل على ذلك بأن قال لي إنّ هناك صالوناً خاصّاً سيُفرد لهؤلاء. لم يكن واسعاً على أيّ حال، وقد اكتفت الشركة التي سبق استئجارها المكان بوضع أربع فوتييات في الوسط تحلّقت حول طاولة مستديرة سطحها من زجاج. الفرش هنا سيتغيّر طبعاً، قال إميل فيما هو يستدير ليخرج مستطلعاً الغرف الأخرى.

مرّة أخرى أحسست بأنّ ذلك الميل إلى تجديد كلّ شيء يدفع بي إلى أن أصير خارج عملي. كأنّ ما يجري تجهيزه على الدوام إنّما يُجهّز لرجل غيري. هناك في المكتب الذي لم ننتقل منه بعد يبدو كلّ شيء جديد يأتون به كأنّه يقذف بي مسافة عنه

وعن موظّفيه. من ذلك مثلاً سرورهم بأنّهم يستطيعون أن يجمعوا ثلاثة متكلّمين معاً، كلّ واحد منهم في بلد، على "السكايب" الذي يتوسّط طاولة الاجتماع. من ذلك أيضاً ما عرَضَه الموظّفان الجديدان، الزوج وزوجته، عن تصوّرهما الأوّلي لصفحة الغلاف التي نقلا صورة لها من الكومبيوتر إلى شاشة التلفزيون العريضة المعلّقة في وسط الحائط. ثمّ تلك الكلمات المخترعة لتسمية ما تؤدّيه هذه الأدوات، وهي كلمات تزداد وتتّسع كلّ يوم، كأنّما نحو أن تصير لغة كاملة.

من تلك المسافة التي قذفتني هذه الأشياء إليها بات عليّ أن أستجمع كلّ ما لديّ من شجاعة لأقول لهم إنّني، مثلاً، لا أعرف كيف يمكن لمجلّة تصدر بالعربية أن تكون الإنكليزيّة هي اللغة التي نتكلّمها في اجتماع مجلس التحرير. ربما أستطيع أن أقول ذلك لإميل وحده، وفقط في الوقت الذي يكون يشكو فيه من إهماله تعليم أولاده "الأميركان" لغة بلد أبيهم. لكن طبعاً لن أقول لهم إنّ إصدار مجلّة شهريّة لا يحتاج إلى كلّ هذه التحضيرات. عندها سأبدو أنّي أردّهم إلى الزمن الذي لم يتعلّموا ما تعلّموه إلّا من أجل أن يتعدّوه أو يصيروا في ما بعده.

- شو رأيك، سألني إميل فيما نحن نخرج من المصعد.

- برد، أجبته متحسّساً بطني بيدي.

- أنا كمان وجعتني بطني، قال، ثمّ عاود سؤاله موضحاً أنّه يقصد رأيي في المكتب ككلّ.

- فخم.

وهو فهم ما تحتمله كلمة فخم، إذ أسرع بأن قال لي، كأنّه يكشف لي سرّاً، إنّ صاحبنا أبلغه أنّه يريد أن يكون المكتب في أفخم محلّ هنا، راجعاً هكذا إلى كلمتي ذاتها.

* * *

ذلك الانتقال إلى المكتب الجديد سيضطرّني إلى أن أغيّر الطريق التي اعتدت أن أسلكها كلّ يوم. أستطيع طبعاً أن أظلّ كما كنت، أن أسير الطريق ذاتها إلى مكتبنا الأوّل، ثم أكمل من هناك ماشياً المسافة التي قطعناها معاً أنا وإميل. لكن عليّ أن أجد الطريق المناسبة، الطريق الأقصر، الطريق الأقرب. هكذا يجب أن أفعل ما دمت سأكون ذاهباً إلى عملي وما دام هذا سيتكرّر كلّ يوم.

ويجب عليّ لذلك أن أعرف أين سأركن سيّارتي في المرأب الذي، كما قدّرت، يمتدّ على طول الشارع الذي فوقه. ذلك من أجل أن أعرف أيّ مخرج من مخارجه هو الأنسب لي. لكن مع ذلك ينبغي لي، في خارطتي الجديدة، أن أبقي على مروري بجانب البنات الثلاث، المنتظرات أن تفتح بوابة المحل الذي يعملن فيه. أن يكون مروري من هناك محطّة مشيي الثانية. كأن أصل إليهنّ أوّلاً ثم، من هناك، أكمل ما تبقّى لي من الطريق. سأصل إليهنّ، وإن من جهة أخرى. وهنّ سينتبهن إلى ذلك، لا بدّ، فيلتفتن هذه المرّة علامة على أنّ من كنّ ينتظرن قدومه من الخلف أتى هذه المرّة من أمام. ولا بدّ أنّهنّ سيقلن شيئاً عن ذلك. ستقول واحدة منهنّ، منبّهة رفيقتيها: انظرا... لقد أتى من هناك، من جهة الدرج المتحرّك الذي سأبدو، وهو ينخفض بي، كأنّني أطلّ عليهنّ، أو أهبط عليهنّ، من مرتفع كنت فيه.

* * *

قالت سعاد إنّها ستمرّ بسيّارتها لتأخذني من حيث أشتغل. انتظرتها عند تقاطع الشارعين العريضين، متحسباً لمجيئها من أيّ منهما. "الساعة واحدة يعني الساعة واحدة" قالت لي قبل أن تقفل سماعة التلفون، إذ إنّها لن تستطيع أن توقف سيّارتها هناك ولو لثانيتين. لكنّها تأخّرت مع ذلك، خمس دقائق ثمّ عشر ثم تعدّت ذلك تاركة إيّاي أتصبّب عرقاً وأتلفّت إلى هذه الجهة وإلى تلك مترقّباً وصولها. وقد فاجأني توقّف سيّارتها أمامي رغم ذلك. "طلاع... طلاع... بسرعة طلاع" قالت من شقّ

الزجاج الضيّق. ‘‘هون في كلينكس، نشّف عرقك‘‘. كان الجوّ بارداً في سيّارتها بل ومصقعاً. ‘‘نيّالك على هالنعيم‘‘، قلت لها ملمّحا إلى تأخّرها. لم تردّ. انتظرت لحظات لتقول لي إنّ الشاب ينتظرنا في بيته، وإنّ عليها أن تسرع لئلّا نتأخّر عنه هو أيضاً.

كنت قد تردّدت في أن نذهب إليه. ‘‘يعني شو بدنا نقول لما نشوفه، جايين نتفرّج على البيانو؟‘‘، وهي راحت تقول لي إنّني هكذا على عادتي، أحبّ أن أحصل على الأشياء لكن لا أفعل شيئاً من أجلها. لكنّها أصرّت. في أحيان تبدو مثل أولئك السماسرة الذين يدفعون الناس دفعاً إلى أن يقبلوا بما يُعرض لهم، مع أن لا شيء ستجنيه من حماستها تلك.

- ‘‘خود... خود كلينكس بعد... ما تستحي‘‘. كانت منشغلة بالتقدّم إلى الأمام مغالبة السيارات التي تتسلّل من حولها. ثمّ سألتني إن كان يزعجني التبريد، وذلك من دون أن تلتفت إليّ. كانت قد تعرّقت هي أيضاً قبل أن تبدأ مجيئها إليّ. عرفت ذلك من رفعها شعرها عن رقبتها وربطه بمشبكة كبيرة لمّت جانبيه أيضاً. بدت بذلك كأنّها كشفت عن شيء فيها كانت تخبّئه، أو لم تكن عارفة به. وأنا، بتلك الحركة التي نتخيّل حصولها تخيّلاً، رحت أتحسّس كيف يمكن أن يكون ملمسها نزولاً من رقبتها حتى أعلى ظهرها.

- راح نوصل، خلّيني تلفن بالأوّل.

بيد واحدة فعلت ذلك. وحين انتهت من مكالمة ذلك الشاب، رمت التلفون في جزدانها المفتوح في الوسط، بين مقعدينا.

في المصعد بدت لي كما لو أنّها أحبّت ، هي أيضاً، أن يكون شعرها مرفوعاً هكذا إلى الأعلى. كانت تحاول أن ترى كل ما يمكن رؤيته منه، مديرة عينيها ما أمكنها إلى ما تشاهده في المرآة. ثمّ، حين توقّف المصعد في الأعلى، نظرت إلى نفسها نظرات سريعة واستدارت لتكون مواجهة بابه.

* * *

كأنّني كنت أنتظر شيئاً من هيئة الشاب وشكله. ليس أن يكون شبيها بها، هي دلال، لكن أن يذكّر بها، أو أن يكون فيه شيء مختلف عن الأشخاص العاديين الذين نرى منهم كلّ يوم. لهجته أيضاً بدت محبطة، إذ لم يكن فيها أثر من لهجة غير تلك التي نسمعها هنا وهناك من حولنا. لا شيء مختلفاً فيه، لا شيء أبداً. قال لنا معتذراً عن أنّه وحده، إنّ زوجته خرجت لتأتي بابنتهما من حضانتها. وهو دعانا إلى الجلوس على الكنبايات الصغيرة الحجم لتتلاءم مع مساحة الصالون الضيّقة.

ومع أنّني قرّرت ألّا أبذل مجهوداً يقرّبني إليه، إلّا أنّني، فيما أنا أنظر إلى كنبايتين مفكّراً أين أجلس، أحسست بالحرج من كبري. لا أعرف ماذا قالت سعاد له عنّي، وبأيّ قدر من الجدّ. وإذ نظرت إليها، بعد أن اتّخذتُ مكاني على الكنباية القريبة إليها، رأيت أنّها لم تعرف الشاب كفاية. لم تبادره بكلمات بدا منها أنّها رفعت الكلفة بينها وبينه. لا أكثر من أنّها قالت له، حين وقف أمامنا بجانب الباب المفتوح، إننا جئنا لنفحص البيانو، مضيفة إلى ذلك ابتسامة لكي يُفهم أنّ ما قالته يقع في باب المزاح.

ـ كنت مفكّر إنّك بتعرفيه أكثر، قلت لها حين استدار هو عنّا واتّجه نحو غرف البيت الأخرى.

ـ أنا تعرّفت عليه كرمالك.

كأنّني أدركت فجأة درجة العبث في هذه الزيارة وأنّ جلوسنا متّخذين هيئة الجد يجعلها أكثر عبثيّة. كان ينبغي أن يغطّى ذلك بالمزاح والضحك. أن نبدو أنا وسعاد كأننا جئنا نتسلّى ونهزأ ممّا جئنا لأجله.

ـ هونيك، البيانو هونيك، قالت سعاد مديرة وجهها إلى مساحة صغيرة ملحقة بالصالون.

التفتّ إلى حيث أشارت. كان طرفه ظاهراً لي من حيث أجلس، لكن فكّرت أنّ عليّ أن أنتظر الشاب صاحب البيت لكي يأذن لي بالذهاب إليه.

وهو لم يتأخّر على أيّ حال. عاد حاملاً صينيّة وُضع فوقها فنجانان من القهوة وقدّم أوّلهما لسعاد التي قالت له إنّها منذ الصباح لم تشرب فنجان قهوة بعد.

قال لي فيما هو يقدّم لي قهوتي إنّه يظنّ أننا سبق لنا أن التقينا. لم أرغب في أن أعدّد له أمكنة محتملة لالتقائنا. بدلاً من ذلك اعتذرت له عن مجيئنا وإزهاق وقته. وهو، متقوّياً بكونه المضيف، سألني متجاوزاً عن الكلام المجامل الذي كان ينبغي لنا أن نستمرّ قليلاً فيه:

- قالت لي المدام سعاد إنّك كنت في الصفّ مع دلال عباشي.

بدا كما لو أنّه ارتفع عن عمره، أو كأنّه عفّ عمّا يقتضيه اختلاف الأعمار بيننا.

وأنا أجبته بردّ السؤال إليه: "إنت ما بتعرفا يمكن، هيك خبّرتني مدام سعاد".

- البابا بيعرفا. لمّا راحوا كنت أنا بعد ما خلقت.

- إنت قدّيش عمرك؟ سألتْه سعاد كأنّما من أجل أن تستهول عدد السنوات التي تفصلني عن الزمن الذي عرفتُ قريبته فيه.

لم يجب إلا بابتسامة دلّت على أنّه يعرف ما هو مقصدها. ثم أعاد التفاته إليّ مظهراً استعداده لسماع ما قد أسأله.

- بس إنت بتعرف بيت أهلها اللي قريب عالبحر؟

- بعرف البيانو، قال مبتسماً ومرسلاً يده إلى تلك المساحة الصغيرة، حيث البيانو.

مرّة أخرى خطر لي أنّه مستقو هكذا لأنّنا في بيته. وسعاد انتبهت إلى ذلك وقالت، نيابة عنّي، إنّني أسأل عن بيتها من أجل أن أعرف إن كانت تأتي إلى بيروت أحياناً.

- ما بعرف، يمكن البابا بيعرف.

لأنّي لم أشأ أن يتوقّف كلامه عند أبيه، قلت إنهم ربما ما زالوا محتفظين بالبيت ربّما...

وقبل أن أكمل قاطعتني سعاد مذكّرة إيّاي بأننا نتكلّم عن أكثر من أربعين سنة.

- وهوي البيت بيدل على إنو ما غيّر أصحابه من أكثر من أربعين سنة.

ليس البيت وحده، بل أيضاً البيوت الأخرى المجاورة له. كلّها ما زالت متروكة مثلما كانت. من حين ما وقفتُ هناك بجانب جابر، ناظراً إلى الشبابيك والحيطان التي حولها، لم يتغيّر شيء إلّا ما يأتي به العتق وانقضاء السنين، سنة بعد سنة بعد سنة. وحين أعود إلى الوقوف الآن، حيث ما زلت لا أعرف أيّ شبّاك هو شبّاكها، أعرف أنّ أحداً لم يمرّر فرشاة الطلاء على شيء أبداً، لا على الشبابيك ولا على حيطانها. كأنّ البيوت قائمة في جزيرة صغيرة منقطعة عن كلّ ما هو حولها. حتى الدرجات العريضة النازلة إلى السفل، الدرجات الثماني والتسعين، تجدّدت بأن كُسيت حجارتها بألواح من الرخام غير المصقول، وذلك لكي لا يتعثّر أولئك الذين سكنوا في البنايات الجديدة التي أقيمت محيطة بتللك البيوت.

- لازم شي مرّة تاخدني لشوف، قالت سعاد.

- شي مرّة. بس يمكن البيوت كلّها بعدها مع أصحابها هوديك... يعني كيف إنّو ولا مرّة شفت شبّاك واحد مفتوح.

- يعني بعدك لهلّق بتروح لهونيك؟ سأل الشاب.

- مش جاعلها شغلتي وعملتي، بس مرّات إيه، بمرق من هونيك وبشوف. أحياناً بوقّف سيارتي وبنزل إتطلّع.

لم أكن في حاجة إلى أن أذكّر نفسي بالبيانو الذي هناك، مختبئاً أكثره بالحائط، لكن كلامي عن البيوت القديمة تلك، المقفلة شبابيكها، أعاده إليّ كأنّه أثر نادر من

محتوياتها. ليس دلال فقط، وأصابعها التي يمكنني أن أتخيّل كيف كانت تلاعب المفاتيح العاجيّة، بل البيوت نفسها، أو زمنها.

- أنا بدّي إتفرّج على البيانو.

قمت مع سعاد لأتفرّج أنا أيضاً، أما الشاب فبقي على كنبايته، كأنّما ليستفيد من وقت تفرّجنا القليل وينجز مهمّات ما زالت منتظرة على شاشة تلفونه.

* * *

كان وائل، المنبهر بالأشياء التي سيأتي بها المستقبل، قد أبدى أقصى درجات استهجانه حين رحت أصف له كنزتها ذات الأزرار التي تعقد من الأسفل إلى الأعلى، والمشغول صوفها باليد، باللونين الرمادي والأبيض. قلت له إنّني ما أزال أذكرها، بل وأحسّ بملمسها، كأنّني الآن أتداولها بيديّ. كانت ترتديها ونحن في ملعب الفوتبول الذي أخذنا أستاذنا إليه. وكان هناك ناس عديدون موزّعون في أنحائه الواسعة. ونحن التلاميذ صرنا نتمشّى بينهم أو نذهب لنستريح تحت الشجرات التي زرعوها ليستظلّ بها اللاعبون. وأنا لا أكاد أذهب إلى هناك حتى أعود إلى هنا، متنقّلا هكذا، إذ لم أعرف أين يجب أن أكون. كذلك فإنّني لم أعرف أيّ هيئة لي هي الأحسن، لأنّني لا أعرف ما الذي يُعجب فيّ وما الذي لا يُعجب. وكانت هي تمشي مع رفيقة لها قاطعتين الملعب، ذهاباً وإياباً، من أوّله إلى آخره ومن آخره إلى أوّله. ولا ينبغي لي أن أفعل ما تفعلان لئلّا أبدو كأنّني أتعقّبهما أو أسير وراءهما. ولا ينبغي أن أكلّمهما أيضاً لأنّي قد أخطئ، كأن أبدو متطفّلا مثلاً، أو أن أتلعثم، أو أن يحمرّ وجهي فأتلعثم، لأنّهما لاحظتا أنّ وجهي صار أحمر. هكذا كان الحبّ يا وائل، أن ننتظر أن يحصل شيء من تلقائه. أن ننتظر شيئاً من دون أن نبادر إلى شيء.

ساعة ونصف الساعة في ذلك الملعب لم يتغيّر فيهما شيء، وأنا قلت في نفسي إنّني سأقضي نصف الساعة الباقي من نزهتنا ممدّداً مستريحاً تحت إحدى الشجرات. وقد

بدأتُ بذلك مهيّئاً مكاناً لي على العشب حين أطلق الأستاذ صفّارته ليجمعنا. قال لنا حين صرنا حوله إنّ حارس المرمى هذا سيقف هناك عند مرماه ونحن سنشوط، واحداً بعد واحد، وهو يردّ لنا الشوطات. الشباب فقط، قال، لكنّ البنات سيبقين هنا ليتفرّجن. ولكي يرينا في أيّ منازلة وضعنا، هو أستاذنا، أشار لنا إلى أن نلتفت نحو حارس المرمى. كان هناك من يرسل له الضربات من قرب سبعة أمتار أو ثمانية. وكانت تأتيه قويّة فيردّها بيديه وجسمه أو يطير لها في الهواء ليسقط حاملاً إياها بيديه سقطة قويّة على الأرض. وكانت تطلع من كلّ ذلك أصوات قويّة مثل تلك التي تطلعها في السينما أصواتُ الركلات والارتطامات. ونحن صرنا نشوط واحداً وراء واحد وحارس المرمى ذاك يردّ كلّ ضربة، مؤدّياً لها كلّ قوّته وبأسه. وأنا عرفت أنني سأكون مثل الآخرين، إذ لن تفيدني حماستي في أن أقوم بما يجعلني متفوّقاً عليهم، أو أن أقوم بشيء أتميّز به عنهم. "غيرو" سيقول الأستاذ، منادياً على من سيشوط من بعدي، فأستدير أنا ذاهباً إلى حيث سبقني من شاطوا قبلي. وكان الشاب حارس المرمى يرتفع ويرتطم بالأرض، وكان يختطف الكرة من الهواء بجسمه كلّه، ويدحرجها بعد ذلك لكي تُشاط له مرّة أخرى. والبنات الواقفات معاً رحن يُعجبن به، لكن ليس الإعجاب الذي يقرّبهنّ إليه أو يحبّبهنّ به. ربما لبشاعة شكله، أو ربّما لقوّته التي تزيد كثيراً عن قوّة من قد يعجبهنّ من الشباب. وكنّ يتقدّمن ويتراجعن في أماكنهنّ مطلقات صرخات خفيفة، كأنّ ارتطام الحارس بالكرة يصيبهنّ أو يخوّفهنّ. لكنّهن رحن بعد ذلك يقلن إنهن يردن أن يشطن هنّ أيضاً: "نحنا... نحنا..." صرن يقلن كلّما أتى الدور للراكل الجديد. وقد استجاب لهنّ الأستاذ بأن أوقفنا نحن الشباب وسألهنّ من منكنّ تحبّ أن تشوط. "أنا... أنا..." صرن يقلن ويتقدّمن وبعضهنّ يزاحم بعضاً. "إنتي" قال مشيراً إلى دلال. وهو أخذ ينظر إليها فيما هي تخرج من بينهنّ ماشية باتجاه الكرة. لكنّها، وهي بعد في وسط المسافة، خلعت كنزتها الصوفية

البيضاء والرمادية بحركة واحدة أو حركتين من يديها وجسمها، ثمّ تقدّمت إليّ حيث أقف أنا: ”أمسك لي الكنزة...“، ولا أعرف إن كانت أنهت كلامها بقولها ”... يا قاسم“، كأن تكون قد قالت ”إمسك لي الكنزة يا قاسم“. أنيس الذي كان رفيقي في تلك السنة يقول إنّها قالت يا قاسم، وأنا لم أنتبه ربّما، إذ كنت بدأت أضطرب منذ أن بدت متّجهة إلى حيث نقف أنا وأنيس وإلى جانبنا تلميذ أو تلميذان. لكنّني أخذت الكنزة منها وطويتها، مانعاً ارتباكي من أن يظهر عليّ.

تصوّر يا وائل أنّني أبقيت الكنزة معلّقة على ذراعي التي جعلتُها مطويّة بزاوية ٩٠ درجة. لم ألمسها حتى. لم أمرّر يدي على صوفها. تركت ذلك إلى ما بعد إرسالها الكرة بركلة أخذ التلاميذ يصفّقون لها مزاحاً وضحكاً. وهي راحت ترفع يديها الاثنتين إلى الأعلى مثلما يفعل الرياضيون حين يحقّقون إصابة. وأنا أنتظر وصولها إليّ لتأخذ كنزتها الباقية على نصف ذراعي المستقيم. لم أتحسّس صوفها ولم أمرّر يدي عليها مثلما يملّس الناس بأيديهم على صوف قطّة. تركتُ ذلك لتخيّلي، أبدأه بعد أن أخذتْ دلال الكنزة منّي وألقتها على كتفها.

- يعني إنت ما حسّيت بالصوف الناعم... بس تخيّلتو؟ سأل وائل.

- حسّيتو من منظرو. بعدين ما تنسى إنّو كان على إيدي.

- بس مش على كفّ إيدك وأصابعك اللي بيخلّوك تحسّ.

- هيك لأ.

ثمّ إن حكاية الكنزة ذكّرت وائل بشيء غاب عن بالي ولم أفكّر فيه طيلة تلك السنوات. سألني متعجّباً كيف أنّي ما زلت عالقاً بفتاة لا أستطيع أن أتذكّر كيف هو جسمها.

- يمكن بتذكّرو شوي.

لم أنتبه كيف هو جسمها، لأنّ خيالنا كان يذهب في اتّجاه آخر. لم يكن خيالنا يعمل مثلما يعمل الآن، بذلك التخيّل الميكانيكي الذي يعرّي الجسم ويفصّله عضواً عضواً. ذلك التخيّل الذي يصير ميكانيكياً أكثر كلما تقدّمنا في العمر، حتى إننا نروح نتساءل من أين له أن يأتينا باللذة ما دام تخيّله لا يأخذنا إلى أبعد من نجاحنا في استحضارنا لصورته.

* * *

جعلتُ الطريق إلى مكتبنا الجديد طويلة من أجل أن أظلّ أمرّ بهنّ، هنّ الثلاث، مروري الأوّل ذاته. ذاك سيبقى متيحاً لي، بعد أن أطلّ عليهنّ هابطاً من السلّم، أن أشاهدهنّ على طول تلك المسافة بين صفّي البنايات. لكنّ شيئاً لم يتغيّر بيني وبينهنّ. ذاك لأنّهنّ لا يجرؤن على إظهار أنفسهنّ أكثر ممّا يظهره جلوسهنّ اليوميّ ذاك. إن قامت واحدة منهنّ لتكلّم، واقفة، رفيقتيها الجالستين، سيبدين كأنّهنّ ذهبن في حريّتهنّ إلى أبعد ممّا يحقّ لهن. وسترى صاحبة المحل الذي يشتغلن فيه، من لحظة ما تصل، أنّهنّ بتن أقلّ امتثالاً ممّا ينبغي. لذلك يبقين كما هنّ، وأبقى أنا أمرّ من خلفهنّ، مكرّراً معهنّ مشهدنا اليومي.

لكنّني، في ذلك الصباح الأكثر سخونة من كلّ الصباحات التي سبقت، أملت أن يتغيّر شيء فيهن. كان الهواء الساخن المتداخلة كتله القوية يصفع الوجوه ويطيّر الأوراق وأكياس النايلون الفارغة التي جمّعها من هنا وهناك. فكّرت أنّهن سيلذن بواحد من أقفاء الحيطان، وأنا، في نزول السلّم الكهربائي بي، كنت أدير وجهي في الاتّجاهات كأنّي أخبّئه من صفعات الريح. وحين صار مقعدهنّ ذاك في مجال نظري، رأيت كما لو أنّ شيئاً أربك جلوسهنّ، وهنّ رحن يتحرّكن مضطربات حين هبّت عليهن كتلة هواء نعفت الأوراق التي كان تبعثر بعضها جرّاء كتلة هواء سبقت. ثم بدأن يركضن خلفها حين راحت تتطاير، فلا تلبث أن تحطّ الورقة منها حتى تفرّ

من أمام اليد التي همّت بالتقاطها. وقد رحن يبتعدن في تفرّقهن، إذ راحت الأوراق تبتعد أكثر فأكثر وهنّ يلحقن بها. وأنا، فيما أتقدّم ماشياً نحو أن يصل بعضها إليّ، أو أصل أنا إليها، تهيّأتُ لكي أبدأ بجمعها معهنّ. وقد التقطتُ أوّل ورقة رفعها الهواء إليّ، ثمّ، إذ تقدّمت خطوتين، انحنيت لأقبض على ورقة أخرى كانت حطّت على الأرض. ولم أتأخرّ حتى أصير الرابع بينهنّ. أركض مثلهنّ ثمّ أنحني مثلهن، لامّاً الورقات بعد مطاردتها. وقد عرفن أنّي هناك معهنّ، حيث لم يطل بي ذلك حتى صرت أجد نفسي وجهاً لوجه أمام واحدة منهنّ، ثمّ واحدة أخرى بحسب ما تغيّر اتّجاهنا الريح اللاعبة بالأوراق. وهنّ كنّ يطلقن أصواتاً متصايحة، منادية إحداهنّ على رفيقتها، أو رفيقتيها، لأنّ ورقة انفلتت وطارت مبتعدة عنها. وكان يصدف أن تهرع اثنتان منهنّ إلى أن تلتقطاها. كما كان يصدف أن أكون أنا، أن تكون يدي هي التي تمتدّ في مقابل اليد الأخرى.

كان يمكنهنّ أن يبقين الوقت كلّه في مطارداتهنّ تلك، وأبقى أنا مثلهنّ، لو لم يقرّرن فجأة أنّ عليهنّ التوقّف عن الركض وراء الأوراق التي ذهبتْ إلى أبعد ممّا يمكن لهنّ أن يصلن. لكنّهن بدوْن، بعد أن وقفت كلّ منهنّ في مكانها، متأبّطة ما كانت جمعته، كما لو أنّهن واقفات في ميدان معركة خسرنها. أنا أيضاً كنت جامعاً تحت ذراعي ما أمكنني جمعه. وقد أطلْتُ وقوفي مثلهنّ، لكن من أجل أن أعرف ماذا عليّ أن أفعل، أو ربّما إلى حين أن يجتمعن معاً، لأنّي لم أعرف إلى أيّ واحدة أذهب لأعطيها الأوراق التي معي. كنت أتصبّب عرقاً، وهنّ أيضاً كانت ترتفع صدورهنّ وتهبط من اللهاث الشديد. ثمّ، بعد أن أنهين وقت تساؤلهنّ عمّا يجب أن يفعلنه، ناظرات بعضهنّ في وجوه بعض، تقدّمت نحوي إحداهنّ لتأخذ الأوراق منّي. بصمْتهنّ المتسائل ذاك، اتّفقن ربما على أن تتولى هي تلك المهمّة وليس سواها. ربما لأنّها كانت أقرب إلى حيث أقف. ابتسمت لي حين صارت قريبة مني ابتسامة منهكة في الوجه الذي لوّنت

سمرته حمرةُ الركض واللهاث. لم أكن قد رأيت وجهها من ذلك القرب. كان شعرها المعقود بشريط زهري تهتزّ أعلى خصلاته معاندة كأنّها تقاوم هبّات الريح. بعد كلمة "ثانك يو" التي قالتها مرّتين، مرّة وهي على بعد خطوتين أو ثلاث ومرّة بعد أن صارت واقفة أمامي، انتظرتْ أن أمدّ يدي بالأوراق التي معي. كان ذلك، لو فعلته، سيبدّد تلك الفرصة التي أعرف أنّها ربما لن تتكرّر ثانية. انتظرتُ وقتاً قبل أن أسألها إن كان يمكن تعويض الأوراق التي ذهبت إلى غير رجعة. لم يبدُ أنّها فهمت، فقد ارتسمت على وجهها تلك الحركة المتسائلة، طالبة أن أعيد ما قلته. "ذا بايبرز، ذا لوست بايبرز... إمبورتانت؟". ما زالت إنكليزيتها أقلّ ممّا حصّلتْه للبسها وترتيب وجهها. وقد أطرقت مرّتين متتاليتين أرفقت ثانيتهما بكلمتي "إمبورتانت... يس".

لكن مع ذلك لا ينبغي لي أن أستنفد تلك الفرصة بأن أحصل على أقصى ما يمكنني منها. ما ينبغي الاكتفاء به هو أن تتقدّم البنتان الأخريان لأراهما، بل لترياني من ذلك القرب. لكنّهما، بدلاً من ذلك، اتّجهتا نحو ذاك المقعد. لا ينبغي أن أطيل وقوفي طالما أني لن أجد شيئاً أقوله. كنّ هنّ الثلاث قلقات بشأن الأوراق التي حسبت أنها لا تخصّهنّ، إذ إنّهنّ في شغلهنّ وإقامتهنّ لا يحتجن إلى تلك الأوراق الكثيرة. لا بدّ أنّها تخصّ المرأة التي لم تصل إلى محلّها بعد. عليهنّ أن يكنّ معاً إذن من أجل أن يتشاورن ماذا عليهنّ أن يفعلن. "أوكي... آيام سوري" قلت متّخذاً حركة المؤاساة. "ثانك يو مستر، ثانك يو" والتفتّ لأتلقّى إيماءات شكر أخرى من رفيقتيها اللتين هناك.

* * *

أهتدينا أخيراً إلى اسم للمجلّة بعد جلسات تداول عديدة كان بعضها يُستأنف باتّصالات تلفونية وبرسائل على الإنترنت. في تلك المداولات والمحادثات كانت تُطرح أسماء لا يمكن أبداً أن تكون لغير الأشياء التي تسمّت بها في الأصل، مثل رمان، خوخ،

بهار... إلخ؛ أو تطرح أسماء ثمّ يُسأل عن معناها مثل ناصية، الناصية، أعتاب، أسقف... إلخ؛ أو أسماء يُفهم منها أن المجلّة تهدف إلى أن تكون مفتوحة لقرّائها، مثل حوار، نقاش، خواطر، أسئلة، سؤالات...؛ أو أسماء مدن وأمكنة مثل بيروت، ساحات، الأبيض (المتوسّط)، بلاد العرب، كلّ العرب إلخ... وكلّما توافق اثنان على اسم، أي حين يؤيّده أحد بعد أن ينطق به من يقترحه، يروح إسماعيل يبحث في الإنترنت ليرى إن كان هذا الاسم مأخوذاً من قبل. وكان يفعل ذلك بسرعة لا تتأخّر عن وتيرتنا في تعداد الأسماء فيقول، فيما نحن لا نزال يسائل بعضنا بعضاً إن كان هذا الاسم مناسباً: "انسوه... مأخود". وكنّا نتأسّف لضياعه، إذ يتبيّن لنا إنّه مناسب لأنّ أحداً منّا لم يكن قد اعترض عليه تماماً بعد، كما لأنّ أحداً قد اختاره من قبْلنا واقتنع به. وكنّا نقول في فترات انتظارنا لأن يقترح أحد اسماً جديداً إنّ الناس تتعوّد على الاسم كيفما كان، ذاك لأنّه، مع الوقت، سيصير دالاًّ على المجلّة وليس على لفظه هو في حدّ ذاته.

"مرافئ" هو الاسم الذي جرى التوافق عليه، لكن مع ذلك رأى طلال أن نعطي أنفسنا وقتاً للمزيد من التفكير فيه، وقال أيضاً أن نعتبر أّنه اسم مؤقّت، فلربّما اهتدينا إلى سواه. لكنّ إميل الذي يلاحق قضايا التسجيل في الوزارات قال إنّنا تأخّرنا بما فيه الكفاية، وهو، على أيّ حال، سيبدأ تسجيل المجلّة تحت اسم "مرافئ"، وإن تغيّر فلا بأس أن يظلّ كما هو في السجلات وحدها، ما دام الناس لن يتطلّعوا في دفاترنا ليروا الاسم المسجّل فيها.

لكن اتّفاقنا مبدئيّاً على اسم "مرافئ" هدّأ تلك الحمّى التي جعلت عقولنا تعمل مثل الآلات الطابعة وهي تلفظ الأوراق، واحدة بعد واحدة، من فتحتها. حين يلتقي اثنان على باب المصعد يباشران لتوّهما، حتى قبل أن يتبادلا تحيّة الصباح، ذكر الكلمات التي استنبطها كلّ منهما في وقت ما كان بمفرده. كان ذلك أشبه بهذيان تعاظمَ

واستشرى في الأيّام الأخيرة خصوصاً. بعد اتفاقنا على"مرافئ" هدأ ذلك فينا، وإن بقيت تتردّد أصداؤه في الرؤوس.

"المشروع"، كما كان إميل يسمّي المجلّة، كان قد تكلّف مالاً كثيراً قبل أن نصل إلى هذا الاسم الذي لم نكن قد تأكّدنا بعد من ثباتنا عليه. وقد بدا أنّ تصميم الطبعة الورقيّة لن يقلّ عنه تكلفة ولا إهداراً للوقت. كان قد انقضى شهر كامل على انتظار التصميم الجديد ولم يقدّم الزوجان ما يستحقّ أن يكون نسخة أوّلية، مع أنّهما يبدوان في حركتهما مسرعين في كلّ شيء يفعلانه. تلك السرعة التي تبديهما كما لو أن طاقة داخليّة زائدة تحرّك جسميهما، أو كما لو أنّ كلّاً منهما يقوم بعملين اثنين فيما هو يؤدّي عملاً واحداً. "نحتاج إلى أسبوع أو أسبوعين" يقول الزوج قبل أن يبدأ بتجميع أغراضه الكثيرة عن طاولة الاجتماعات. ثمّ ، فيما هو وزوجته يتوزّعان حمل الأغراض التي كانا قد جاءا بها، أسمع طلال يطلب أن نبدأ الحديث بالمضمون ما دام الإخراج مراوحاً في مكانه.

* * *

مرّة واحدة اقترحتُ أن نكلّف أحمد الحنّاوي بإخراج المجلّة. جرى ذلك في واحد من الاجتماعات القليلة التي عقدناها في مكتبنا القديم، ولم يلقَ منهم قبولاً أو حتى انتباهاً. اكتفى طلال بأن سألني أين يعمل أحمد الحنّاوي، ولما أجبته بأنّنا عملنا معاً في الجريدة، لم يشأ حتى أن يرى شيئاً من تصميماته. ولم أعد مرّة ثانية إلى تسميته لهم، لكنني بقيت أفكّر في أنّه، إن أتى، يمكنه أن يصمّم لنا المجلّة، بصفحاتها المئة والأربع والعشرين، في يومين أو ثلاثة. في أحيان كنت أهمّ بأن أعيد عليهم اسمه، وذلك كلّما تبيّن لي أنّ المهلة الجديدة التي أعطيت للإخراج لم تسفر عن شيء، وأيضاً كلّما رأيت السرعة اللامجدية في حركة الزوجين.

تخيّلت أحمد جالساً وراء مكتبه في الطابق تحت الأرضيّ من الجريدة حيث كنت أعمل. كنت أراه، لسرعته ومهارته، قاعداً مستريحاً على الدوام، إذ لا تأخذ صفحات الجريدة الأربع والعشرون إلا جزءاً قليلاً من وقته. وكان، بالرغم من تمكّنه من شغله، يظلّ يفكّر في احتمالات عمل آخر، إذ لم يكن يحبّ أن يقضي عمره كلّه مشتغلاً في مهنة واحدة. "العمل الحرّ هو ما أريده" كان يقول لي فيما هو ينفض رماد سيجاره الرخيص الذي تعبق رائحته في الطابق تحت الأرضيّ كلّه. كان يرسم المواد ويصوّرها على صفحات ورقيّة مصقولة، إحداها في مساحة صفحة الجريدة، ثمّ يطوي الصفحة طيّات أربع بعد أن يكون قد أنهى رسمها في دقائق قليلة. ترك لموظّفي قسمه أن ينقلوا إلى شاشة الكومبيوتر ما رسمه هو على الورق. "وأنا بها العمر بدّك إنّي أشتغل على الكومبيوتر" يقول لي فيما أنا مستمتع بجريان قلمه الرصاص على الصفحات. "أنا متلك يا أحمد ، بحبّ القلم والورقة" أقول له مؤيّداً، لكنّنا لن نلبث، أنا وهو، أن نقول إنّنا آخر جيل يشتغل بطريقتنا القديمة هذه.

أنا نفسي بتّ أعرف أن لا مكان لأحمد هنا، في المجلّة. لن يتحمّلوا رؤيته وهو يطوي أوراقه بعد أن يكون قد سوّدها بقلم الرصاص، كذلك فإنهم لن يتحمّلوا عمره الذي لم يحاول إيقاف جريانه بتكيّفه مع موديلات البناطلين الجديدة، تلك التي تبدي ساقيّ نحيلتين تحت جذعي العريض. سيبدو أحمد معتزّاً بعاداته أمامهم، ما دام يقوم بمثل ما يقوم به الأولاد العباقرة الذين يظهرون على التلفزيون وهم يجرون العمليات الحسابيّة المعقّدة في رؤوسهم، مسابقين الكومبيوترات والآلات الحاسبة التي إلى جانبهم.

* * *

كانت سعاد متأكّدة من أن بحثي عن دلال، وسعيها معي في ذلك، لن يوصلانا إلى شيء. في كلّ مرّة نكون فيها، أنا وهي، منهمكين بما قد يقرّبنا خطوة من أن نعرف

شيئاً عنها، أحسّ بها تتسلّى بما نقوم به. كذلك أرى على وجهها تلك الابتسامة ذاتها، التي تذكّرني بأنّي، مرّة أخرى، أعرّض نفسي لسخريتها وعبثها. لكنّها، على الرغم من ذلك، تظلّ تذهب قدماً في ما تصفه بأنّه مساعدتي في بحثي عنها:

- قاسم... البيانو...

- إيه... شو؟

- بدّك تشتريه؟

- ...

- شو...؟

- فاجأتيني.

- الشبّ بدّو يبيعو.

لم أكن قد فكّرت في احتمال أن أراه مرّة ثانية. بعد أن وقفنا أنا وسعاد أمامه ناظرين إلى خشبه الملتمع كأنّما بدهان زائف، مدّت هي يدها لترفع الغطاء عن لوحة مفاتيحه. للحظة كدت أوقفها عن ذلك، إذ إنّني فكّرت أنّ ذلك يحتاج إلى موافقة الشاب الجالس هناك، مشتغلاً بتلفونه. وهي، على أيّ حال، كانت تدرك أنّ علينا ربما أن نأخذ إذناً لذلك، قامت برفع الغطاء كأنها تكشف عن شيء ثمين تحته.

لم أحبّ ما رأيت. كان اللون الأبيض لبعض المفاتيح قد استبدل بأبيض بارد ومصطنع، فتخيّلت أصابع أخرى كثيرة تعاقبت على لوحته. ثمّ إنّني كرهت كيف أنّ من جدّده لم يشأ أن يدفع إلّا أقلّ التكاليف.

- هوّي قال بدّو يبيعو؟

- إيه هوّي... بس شو قصدَك؟

- قصدي إنّو هوّي عرض عليكِ نشتريه، هوّي اتّصل؟

- هيدا شو بيفرق؟

- بيفرق شويّ.

- يعني أنا كنت مفكّري إنّك راح تنبسط إنو يصير البيانو عندك.

تخيّلتها، فيما هي تقول ذلك، وهي تغمز متمسخرة كيف أنّي بدأت أجري الحسابات. كان عليّ أن أردّ بشيء، وذلك لكرهي وخجلي من أن أبدو كما ظنّت بي.

- لا، لا... بس فاجأتيني متل ما قلتلّك.

- على كلّ حال متل ما بدّك.

كان يجب أن أقول شيئاً قبل أن تقفل الخطّ وهي باقية على ظنّها ذاك، كأن أبدو مثلاً أنّني أغيّر من لهجة كلامي الذي سبق:

- ليكي بصراحة، أنا ما حبّيت هالشبّ... كمان ما حبّيت إنّو تفوت ذكرياتي اللي بحبّها بها النوع من الإشيا. قولي لي هوّي اللي تلفن بدّو يبيع البيانو؟

كنت أريد أن أعرف، فقط من أجل أن أتخيّل الشاب في موقف أكرهه. أن يكون قد سُرّ لأنّ أحداً سيشتري البيانو بما يزيد على ثمنه، أي بما يزيد على ثمن خشبه ودهانه ومفاتيحه. ذلك يساعد على أن أتخيّله، بطوله ذاك، وبنحوله، وبانصرافه المفتعل إلى تلفونه يوم كنّا هناك في بيته، بيّاعاً تافهاً.

أعرف أنّني، إذ أفكّر هكذا، أكون أجازف بإدخال ما أكرهه إلى ما أحبّه.

- على كلّ حال خلّيني فكّر، قلت كأنّني أكمل محادثتي لنفسي.

* * *

تلك الحماسة، بل تلك المتابعة التي لا تكلّ، ما زالت تحيّرني كلّما أقفلت خطّ التلفون ورحت أفكّر في ما قالته لي. بل ما يحيّرني أكثر هو إبقاؤها على تلك العلاقة التي لا تتقدّم بيننا خطوة إلى الأمام. أفكّر أحياناً أنّها تتسلّى بانتظارها ما قد يحدث لعلاقة منتهية منذ أكثر من أربعين عاماً، أو على الأصحّ، إن كان يمكن لعلاقة أن تقوم بعد أن تأجّلت، أو تأخّرت، كل تلك الأعوام. كأنّها تختبر إن كان شيء كهذا يمكن أن

يحدث، أو أن يصل إلى شيء، أو إن كان يمكن لشيء يحصل في الروايات أو في الأفلام أن يحصل حقّاً. في أحيان أراني وقد أهملت الاتّصال بها، وهذا ما كنت أقع فيه كلّ تلك السنوات، فتتلفن لي. لقد عرفتُ شيئاً، تقول، أو تقول إنّها تعرّفت إلى أحد يمكن أن يوصلنا إلى دلال.

ولم يحدث أن تعدّت ذلك الفضول إلى ما قد يظهر اهتماماً آخر تخبّئه أو تؤجّله. حتى في المرّات التي كان فيها وجهانا قريبين، ذلك القرب الذي يُجفل الناس وينبّههم إلى أنّ ما لم يسبق لهم أن فكّروا فيه ها هو يراودهم الآن، حتى ونحن في الموقف ذاك، لم يداخل نظرتها ذلك الوميض الكاشف الذي، من فوره، يمكنه أن يغيّر العلاقة بيننا. لم يحصل ذلك لي، أنا أيضاً. بارداً أكون حين يقترب وجهها حتى ليملأ نظري كلّه. أصير أتأمّل التفاصيل القريبة وأسائل نفسي هل إن أطلت النظر إلى فمها، أو إلى عينيها، أو إلى بشرتها، سيزيحني ذلك عن حيادي تجاهها؟ هل سينبض شيء في داخلي، هكذا فجأة، فأرفع يدي التي تكون مسبلة إلى جانبي، لكي ألمسها تلك اللمسة الأولى؟

كلّ ما يجري بيننا يجري بعيداً عن ذلك الاحتمال. لكنّني لم أصل بعد إلى تلك المرحلة التي تكون فيها الحال بيني وبينها، أنا كرجل وهي كامرأة، قد صارت مثل أرض منبسطة مستوية لا مفاجآت فيها. أعرف أن ليست هذه حالي وحدها، إذ لا يُستنفد الاحتمال بين رجل وامرأة. سيظلّان هناك عند ذاك الحدّ الذي، إن غادراه، فإلى العلاقة أو إلى القطيعة.

* * *

هذه المرّة لن تكون مثل كل المرّات التي سبقت. لن أمرّ من أمامهنّ مثلما كنت أمرّ من قبل. شيء ما يجب أن يحدث. لا أعرف إن كان عليّ أنا أن ألقي عليهنّ التحيّة التي لا ينبغي أن تزيد على الابتسام المصاحَب بالتمتمة، أو إن كنّ هنّ اللواتي

سيبادرن، منذ أن أظهر لهنّ، مطلّاً عليهنّ من درجات الوصول الأخيرة. لكن شيئاً ما يجب أن يحدث. لن أُتعب رأسي بالتفكير في ما سوف يجري. سأترك ذلك يحدث في حينه، بادئاً من هناك وأنا على مسافة خطوات ينبغي ألّا تكون كثيرة. أنا الآن أتقدّم في الطريق إليهنّ، قاطعاً المسافة التي تتناقص كلما مشيت مخلّفاً واجهات المحالّ ورائي، واحدة بعد واحدة. وها إنّني أضع قدمي على أوّل درجات السلم الكهربائي، ثم القدم الثانية. وها إنّني أنزل، أو ينزل السلّم بي. ها إنّني أهبط. هناك، وأنا في الوسط، سيريننني، أو ستراني واحدة منهنّ فتقول، محوّلة وجهها إلى رفيقتيها: إنّه هو، ها إنّه أتى. ذاك أنّهن، هن الثلاث، لا يعرفن بعد إن كانت التي أُرسلت إليّ لتكلّمني، بعد تطاير الأوراق، ستتولّى هي تحيّتي، أو تقوم بردّ التحيّة لي.

أما أنا فليس عليّ إلا أن أقترب في مشيتي من جهة ما يجلسن لكي لا أمرّ من دون أن يلاحظنني. ذاك أنّهن لا يغيّرن جلوسهنّ الذي يبقين فيه مديرات ظهورهنّ إلى العابرين في تلك الساحة. لا أكثر من أن أنحرف قليلاً، بما لا يبديني أنّني قاصد أن أظهر لهنّ. الآن صرت على الطريق الواسعة متقدّماً نحوهنّ. ها إنّني أبدأ طريقي بأن أرفع عينيّ إلى حيث يجلسن. كنّ جالسات معاً هنّ الثلاث، كما يكون جلوسهنّ في العادة، مديرات ظهورهنّ إلى من يعبر الساحة من ورائهنّ. لكنّهن يعرفن بما يجري حولهنّ، أو بمن يمرّ من ورائهنّ، ما دمن، ليتكلّمن في ما بينهن، عليهن أن يكثرن من الالتفات. ثم إنّني انحرفت قليلاً باتجاه المحالّ المقفلة، من أجل ألا يخطئنني. ها إنني أصير قريباً، ومستعدّاً لأن أبدو ماشياً مشيتي العادية، وأكون متيقّظاً لهنّ في الوقت نفسه. رفعت عيني مرة أخرى إليهن، المرة التي يجب أن تكون الأخيرة. لا أعرف إن كان ذلك قد حدث من قبل انتباهي له. كانت تنظر إليّ، تلك الجالسة على الطرف من جهتي. وربما فوجئت هي أيضاً بعد أن تلاقت نظراتنا، إذ بدونا، أنا وهي، متلبّسين بما ننظر إليه. لكنّها مع ذلك تمتمت شيئاً. تحرّكت شفتاها بما

يمكن أن تكون قد قالت: ”إنّه هنا“، أو ”هو أتى...“، أو ”انظرا هناك...“ حيث هي تنظر. وهما، الأخريان، كانتا تنتظران ذلك ربما، فقد بدتا كأنّهما تنتظرانني وهما نسّقتا التفاتهما إليّ. تلك التي عند الطرف الآخر أوّلاً، أما تلك التي في الوسط، فانتظرت أن أصير أقرب، مرجئة التفاتها حتى تبدو كأنّها تتبيّن شيئاً أحسّت به مقبلاً نحوها.

حين صرت على ذلك القرب منهنّ، كنّ، هنّ الثلاث، صامتات ومترقّبات لما يمكن أن يحدث. وأنا، الذي لم يبق لي إلّا خطوة واحدة أو خطوتان، كان يجب أن أقول شيئاً، أن أفعل شيئاً، إذ من كنّ مثلهنّ قادمات للشغل يتركن لسواهنّ أن يكون هو من يبادر أو يقرّر.

- غود مورنينغ.

قلتها كأن بلا صوت، لكن مع إيماءة من رأسي وابتسامة خفيفة.

- غود مورنينغ سير.

سمعتها، من واحدة منهنّ أو من اثنتين.

وإذ تعدّيتهن بعد ذلك، مدركاً أنّهن ينظرن إليّ، توقّفتُ، واستدرت كأنني تذكّرت شيئاً أقوله لهنّ:

- الأوراق... هل ضاع منها الكثير، قلت، واقفاً أمامهنّ ومتّخذاً هيئة من يريد أن يعرف.

رحن ينظرن بعضهنّ في وجوه بعض، كأنهنّ يخترن من بينهنّ من تُجيبني.

لم يتركن ذلك للتي كلّمتني أمس. كانت قد وقفت لي، هي ورفيقتها التي إلى جانبها، لكنّهما هما الاثنتان بدتا مفكّرتين بماذا تجيبان.

- أونلي ليتل بايبرز، قالت تلك الجالسة، لا تزال، وإن مستديرة بجسمها لتصير ناظرة إليّ.

- إت مايكس أني بروبلم؟

- عدن يتبادلن النظر في ما بينهن، ثمّ قالت تلك التي ما زالت جالسة، دافعة رفيقتيها إلى أن تضحكا:

- ليتل بروبلم.

لكنّهن أسرعن إلى الاعتذار عن ضحكهنّ بأن قالت، تلك التي كلمّتني أمس، وما زالت تربط جانب شعرها بالشريط الزهري:

- ثانك يو مستر، ثم أضافت بإنكليزية أمكنني فهمها، أنّه لولاي لكانت ضاعت أوراق كثيرة.

- أوكي...، قلت مبتسماً.

فكّرت في أنّني يجب ألّا أطيل وقوفهن. ربما أُحرجهنّ بوقوفي معهنّ، هنّ اللواتي لا يجرؤن عادة حتى على تغيير وضعية جلوسهنّ. ثم إنّ ما جرى يكفي لهذا اليوم.

* * *

فيما أنا أكمل طريقي، لم أذهب إلى أكثر من أنّ أتخيّل نفسي معهنّ، هنّ الثلاث، ذاهبين في نزهة. لا أكثر من ذلك. كأنّني أجّلت ما يمكن أن أكمله معهنّ إلى وقت سيجيء بعد نزهتنا، أو نزهاتنا. أكون معهنّ في سيّارتي أوّلاً، ولا يهمّ من منهنّ ستكون جالسة بقربي ومن ستكونان جالستين في الخلف. وهنّ، في السيّارة معي، سيكثرن من الضحك والكلام، ولن يعدن ساكتات هكذا مختفيات عن العابرين بإدارتهنّ ظهورهنّ إليهم. كلّ شيء آخر سأترك التفكير فيه، وتخيّله، إلى ما بعد أن أصير أعرفهنّ، أو إلى ما بعد أن أصير قادراً على التمييز بينهنّ، أو أن يبقين كما هنّ هكذا متساويات لا تغلب إحداهنّ الأخرى.

* * *

قال لي إميل، من فور دخولي إلى المكتب، إنّ طلال طلبني من لندن وهو ينتظر أن أتصل به. ولم يتأخّر إميل في ذلك إذ ما كدت أجلس إلى طاولة الاجتماعات، تلك التي تظلّ خالية أكثر الوقت، حتى جاءني باللاب توب مفتوحاً على صورة طلال ناظراً على الأرجح إلى شخص جالس بقربه. لكنّه ما لبث أن أدار وجهه إليّ مرحّباً بي، إذ رأى صورتي أمامه على شاشته. طلع صوته متقطّعاً وثقيلاً وهو يسألني إن كان الحرّ لا يزال قويّاً في بيروت.

- لحظة قاسم... لحظة، قال فيما هو ينهض عن مكتبه ثم ابتعد ليبين على الشاشة ظهْر كرسيّه خالياً.

أحببت أن أرى شيئاً من المكتب كيف هو، وإن كان الشخص الذي كان مديراً وجهه إليه ما زال هناك في الغرفة، أو إن كان هناك موظّفون، بريطانيّون على الأخص، جالسين أو واقفين فيها.

- إيه قاسم، قال فيما هو يعاود جلوسه على كرسيّه.

- هيئتك مشغول... بدّك نحكي بعدين؟

- لا... لا، بس كنت بدّي خبّرك عن المواد.

- إي... شفتهن؟

- إي شفتهن.

كنت أنتظر أن يباشر بإبداء إعجابه بما "شافه"، أو بما قرأه. ذاك أنّه، هو الذي لا يعرف الكثير عن كتابة المقالات، ولا يستطيع التمييز بين الكلمات أيّ منها الفصيح وأيّ منها العامي، تسلّم منّي مقالات كتبها محترفون يعمل أكثرهم في الكتابة من سنين طويلة.

بقيت صامتاً منتظراً أن يستأنف كلامه.

- يعني، مش كلّهن متل ما بدنا.

كان ذلك أشبه بصدمة، وإن خفيفة، وهو صمت من بعد ما قاله، مكتفياً بإبقاء وجهه على شاشة الكومبيوتر أمامي.

- ... شو اللي ما عجبك؟

- ...

وأنا انتظرته مبقياً نظري على وجهه.

- مش هيك بدنا يا قاسم، أجاب.

- بس مشان إفهم شو بدّك، شو اللي عجبك من المقالات وشو اللي ما عجبك؟

- ...

وأنا انتظرت هذه المرّة أيضاً قبل أن أقطع صمته الذي تعدّى اللحظة التي يكون من بعدها محرجاً

- يعني ما عجبك شي أبداً؟

لم يكن ممكناً ألا يعجبه شيء. كانت المقالات متنوّعة بما ينبغي لمجلّة حرصت أنا على أن تكون متعدّدة الأبواب، ثمّ إنّ الكتّاب الذين شاركوا في كتابة المقالات كانوا مختلفي الأساليب والاهتمامات، كما كانوا من دول عدّة، لكي تكون المقالات والتحقيقات آتية من مصادرها كما كنّا نردّد في الاجتماعات.

بدا، من استمراره في صمته، أن لا شيء أعجبه، لا شيء أبداً.

كان يريد شيئاً آخر، ولم يفصح ما هو. لكنّه شيء جديد كما سبق أن قال مرّة بعد مرّة في جلساتنا الأولى. وأنا في أثناء ذلك كنت أطمئنه إلى أنّ ما يطلبه هو ما أسعى إليه. ثمّ إنّني، في المقالات التي جمعتها بالاتّفاق مع كتّابها، كنت مرتاحاً إلى كتابتهم لها، بل معتقداً أنّها يصعب أن تلقى اعتراضاً من أحد.

- إذا ما كان بين المقالات ولا واحد عجبك، دلّني على شي مقال منشور بشي محلّ لأعرف...

بدا صوتي مرتفعاً ومحتقناً، لكن لم يغيّر ذلك شيئاً في الوجه الذي أمامي.

- هاي المقالات يا قاسم متلها متل اللي بتنشرو المجلات والجرايد، يمكن أحسن شوي، أو أحسن كتير يمكن، بس مش هيدا اللي عمنعمل المجلّة منشانو.

كدت أقول له إنّه لا يقرأ المجلّات والجرائد العربية ليعرف ماذا فيها، لكنّه، فيما بدأت أنا أستسلم لحنقي، رأيت علامات الخيبة ظاهرة على وجهه. بدا لي أنّ عدم رضاه عمّا قرأه قد أحبطه وأتعبه. في اللقاءات التي كنا نعقدها كان دائم الكلام عن الشيء الجديد الذي سنحقّقه في المجلّة، لكن من دون أن يقترح فكرة أو يسمّي مقالاً قرأه في مكان ما، باللغة العربية أو بغيرها. بل إنّه في أحيان، حين كان واحد من زملائنا يقترح موضوعاً للكتابة، كان يؤيّد ذلك ويبتهج له إلى حدّ أنني كنت أمنع نفسي من أن أقول، مثلاً، إنّ هذا مستهلَك وإن الصحافة توقّفت منذ زمن عن كتابة ما يماثله.

بدا حزيناً هناك، في مكتبه البعيد الذي لا يظهر لي منه إلا وجهه هو، وأعلى جسمه، والحائط الذي خلفه خالياً إلا من بلاط دهانه. تلك كانت المرّة الأولى التي يظهر فيها أنّ المشروع الذي أقحم نفسه فيه قد بدأ يحبطه. ذلك "الجديد" الذي كان ينتظره لم يعثر عليه في المقالات التي أستطيع أن أتخيّل مقدار الجهد الذي بذله لقراءتها، كلمة كلمة، مخمّناً تخميناً ماذا قد تعني هذه الكلمة أو تلك. الجديد الذي يرغب فيه وينتظره لم يجده، وإن كان لا يعرف ما هو ولا كيف سيكون. وأنا جالس قبالة وجهه وكتفيه اللتين تظهرهما الشاشة كما لو أنّ تقوّسهما ضيّق من مساحة صدره، تخيّلت أنّ الجديد الذي يتمثّل في رأسه مثل نبضة متوهّجة، قد تشوّش وفقد الكثير من بريقه.

- طيّب يا قاسم، يمكن إتأخّر هالمرّة تا إنزل عبيروت... بشوفك...

انطفأت صورته على تلك الابتسامة الفاترة، وأنا قمت لأقول لإميل إنني انتهيت وإنّني لم أطفئ اللاب توب.

- شو قال؟ في شي مهمّ؟
- المقالات مش عاجبتو...
- كلّها؟
- هيك فهمت...

* * *

تلك المسافة الإضافيّة بين مكتبنا القديم ومكتبنا الجديد لم تُضف شيئاً كثيراً إلى ما عرفته من هذا الجزء الجديد من المدينة. لا أكثر من محالّ جديدة ومداخل أخرى لمرأب السيّارات الضخم. ولا يغيّر شيئاً ما صار يُتاح لي من أن أختار بين المفارق الصغيرة، فأدخل في هذا القريب من مصعد المرأب أو أذهب قليلاً إلى أبعد لكي أشاهد، مرّة أخرى، بناطلين الأولاد الملوّنة المعلّقة، في تلك الواجهة، على ما يشبه حبل غسيل. كذلك لن يزيد في ما أعرفه أن أختار المسير من الأسفل، حيث المقاهي المتلاصقة على صفّ واحد، والخالية من الزبائن، هي أيضاً، في ذلك الوقت من الصباح.

لم يزد مرور الوقت إذن من معرفتي بهذا المكان الجديد الواسع حيث أعمل. ما زلت في الطريق التي أقطعها ناظراً، بسرعة مشيتي، إلى واجهات المحالّ حولي. ولم أخطُ مرّة خطوة إلى داخل أيّ منها. أراها فقط من الخارج، من وراء زجاج الواجهات اللامعة، أو التي يكونون في أثناء مروري يعملون على تلميعها. كذلك فإنّني لم أعرف ماذا هناك في الطبقات الأعلى، بل لم يخطر لي أنّه قد يكون شيء جارياً هناك لو لم يدعني وائل إلى ذلك الفطور، نازلاً للقائي من مكتبه في مدخل المدينة الجديدة.

حين وصلنا إلى المقهى القريب من مكتبي، وانعطف وائل هامّاً بدخوله، قلت له ممازحاً إنّنا هنا في منطقتي يا وائل.

- منطقتك وما بتعرفها، قال معيّراً إيّاي، مرّة أخرى، باستنكافي عن التعرّف إلى أماكن جديدة.

حين أصبحنا في الداخل، بدا لي، من مجرّد النظر إلى ما يُعرض في البرّاد الممتدّ طولاً حتى آخر تلك الحجرة، أنّني في مكان جديد هو أيضاً. جديد حقّاً، إذ لم يسبق لي، في ما أعرفه من بيروت، أن شاهدت هذه الأنواع من الحلوى التي كأنّها وضعت تحت زجاج البرّاد للعرض فقط. كانت كثيرة الأنواع والأشكال، وتبدو كلّ قطعة منها كأنّها رسمت رسماً باليد. أما ألوانها فبدت لي جديدة، إذ لم يسبق لي أن عرفت أنّ اللون الزهري والأحمر الصارخ والأخضر الفاهي يمكن أن تكون ألواناً لمواد تؤكل. قلت لوائل، فيما نحن نصعد الدرجات إلى الطابق العالي من المقهى، إنّ من سيأكل منها سيشعر بأنّه يخرّب منظرها. ضحك وائل، متذكّراً تعليقات كنت قلتها عن الأشياء التي أشاهدها لأوّل مرّة. ثمّ قال لي، فيما نحن نقف ناظرين إلى المكان المكشوف للسماء والذي توزّعت بين طاولاته مظلّات بيضاء، إنّه لا يعتقد أنّهم هنا يبيعون كلّ ما يصنعونه.

- هنّي ناطرين زبونات المستقبل على كلّ حال، قلت له مستعيداً الحوار بيننا الذي نشبّهه، أنا وهو، بالمواجهة بين زجّالين.

- شايف هالمحلّ شو حلو، قال وائل حين جلسنا على الطرف المطلّ على سطوح قريبة مماثلة.

- حلو بس فاضي، أجبته، منقّلاً نظري على الكراسي والطاولات الفارغة حولي.

قلت لوائل، بعدما أطلّ علينا الغرسون، ثمّ غاب ولم يعد لسؤالنا عن طلباتنا، إنّ المكان هنا جميل لكنّه محزن.

كان محزناً بالفعل، إذ ليس لأنّنا كنّا فيه وحدنا، بل أيضاً لأن لا أحد ظهر لنا على أيّ من تلك الأسطح التي تأثّث اثنان أو ثلاثة منها لتكون مقاهي أو مقاصف.

- الشغل كيف بالمجلّة؟ سألني ونحن في انتظار الغرسون.

وأنا، مؤجّلاً الكلام عن الشغل، قلت إنّ الغرسون الآن منشغل بطلبات غيرنا. لم تكن نكتة موفّقة، لكن وائل ابتسم لها على أيّ حال.

* * *

- الشغل الذي أنا فيه لا أفهمه، قلت لوائل بعد أن انصرف الغرسون حاملاً الورقة التي دوّن عليها ما طلبناه.

- على كلّ حال هاي مش أوّل مرّة، قال وهو يرفع عينيه إليّ بتلك النظرة التي تقول إنّه يعرفني ويعرف عنّي نقيقي في كلّ مكان أشتغل فيه.

لا نلتقي كثيراً أنا ووائل. مرةّ كل ثلاثة أسابيع مثلاً، لكنّني مع ذلك أجد، ونحن جالسيْن معاً، أننا نستأنف مودّة احتفظنا بها على رغم قلّة اللقاءات. من أجل ذلك ربّما يحضر الماضي دائماً بيننا، بل إنّنا نستحضره قاصديْن أن يذكر أحدنا حادثة منه، مثلاً، ليضعها في مقابل حادثة جرت لأحدنا قبل يوم أو يومين.

- لكن هالمرّة مش السبب نقّي. هلّق صرت عمأشعر إنّو في إشيا كتيرة تطوّرت بمعزل عنّي، كإنّي كنت ملتهي وصارت أمور كتيرة وأنا داير ضهري عنها

- يمكن لأنّك مستغرق بذكرياتك؟

- يمكن كمان إنّي ما عدت منتبه كتير للعالم كيف عميتغيّر؟

وهو أيّد تساؤلي الأخير هذا بأن أشار بيده إلى المقاصف والمقاهي على الأسطح حولنا، تلك التي لم أعرفها، بل لم أعرف أنّها موجودة أصلاً. ثمّ قال لي فيما هو يشير بحركة يده ذاتها إلى أقرب الأسطح إلينا، ذاك الذي تدلّت من جداره الواسع أنواع

مختلفة من النبات المعرّش المزهر. كان جميلاً حقاً، وقد شعرت فعلاً بأنّي أفوّت على نفسي أشياء كثيرة، من بينها هذا المقهى الغارق في خضرته.

- فعلاً حلو يا وائل.

- بس للأسف رح يقفّل.

- ليه؟

- ما في زباين... مثل هون ، وأشار برأسه إلى الطاولات والكراسي الخالية من حولنا.

- يعني مش بسّ أنا اللي مش مهتمّ باللي عمبيصير، الناس كمان، وإلّا كانوا إجو ومشّوا هالقهاوي.

- وأنا على كلّ حال مش رح فيّي مشّيها لوحدي، قال فيما هو يزيح كرّاسَ كتبه إلى جانب الطاولة ليفسح للغرسون أن يضع الصحون الثلاثة الصغيرة التي احتوت فطورنا.

- طيّب مين عمبتشوف، سألني فيما هو يطفئ سيجارته التي بدا أنّه شعر بمرارة تبغها حين رأى صحون الفطور أمامه.

* * *

سعاد تسبقني حتى في الأمور التي كان ينبغي أن تخصّني وحدي. ربما كنت أنا من أدخلها إلى ما صرت أسمّيه، حين يتعلّق بحماستها تجاهه، ملفّ دلال. قالت لي، لاهثة مسرعة في الكلام كعادتها، إنّ صديقنا عباشي سأل إن كنّا حقّاً نريد أن نشتري البيانو، وهو طلب أن نسرع إن كنّا راغبين في ذلك. كانت تلك المرّة الثانية التي يخيّل لي فيها أنّها تدفعني دفعاً إلى شراء ذاك البيانو. وكما في تلك المرّة الأولى، تجعل الأمر يبدو كأنّني إزاء فرصة لا ينبغي لي أن أهملها. تريدني أن أشتريه، بل أن أسرع في شرائه. مع أنّها لاحظت أنّني، حين كنا واقفيْن نتفحّص خشبه ولوحة

مفاتيحه، لم يرقني، إذ إنّني استدرت عنه بأسرع ممّا كانت تتوقّع، بل وبدا خروجي المسرع مفاجئاً للشاب الذي كان منتظراً أن نبدأ الكلام عن بيعه وشرائه.

- باين عليك سكتت، قالت لي بعد أن أنهت مقدّماتها عمّا جرى بينها وبين الشاب.

- لا... لا... بس كنت عمفكّر إذا كان البيانو بيخصّ دلال فعلاً.

- ولو يا قاسم، معقول يكون هالزلمي عميكذب.

- ما بعرف، يمكن؟

- هيئتك كتير مش طايقو. مع إنك لازم تحبّو، عالقليلة هيدا الوحيد اللي بتعرفو من الناس اللي بيقربوا حبيبتك. على كلّ حال البيانو هديّة منّي، وكمان رح يوصل لعندك عالبيت، بلا ما تعمل شي إنت.

- إذا بدنا نشتريه أنا اللي لازم إشتريه، بس قبل هيك خلّينا نحكي مع الشبّ بعد مرّة.

كنت قد تحمّست للبيانو في البداية. كان ذكر سعاد له قد أوحى بأنّني أمسكت بطرف الخيط الذي قد يوصل إلى شيء، وأنّني، بعد كلّ تلك السنوات، سأجد نفسي أمام شيء يمكن لمسه ورؤيته. فاجأتني سعاد حين أخبرتني عنه، بل ورحت أؤلّف صوراً لدلال وهي جالسة رافعة يديها ومحنية رأسها فوق لوحته. بل ورحت أتخيّل حياة جارية خلف تلك الشبابيك المقفلة، إذ يصل إلى الغرف خلفها صوتُ الموسيقى البيتية عالياً ضاجّاً. لكن ذلك سرعان ما تلاشى، كأنّه لم يكن أكثر من تخيّلات صنعتْها مخيّلتي على عجل. تخيّلات مفبركة ومركّبة تركيباً. بل إنّني انتبهت إلى أنّ ما أتذكّره من دلال لا يُحتمل أن يضاف إليه شيء. لقد ظلّ كما هو طيلة تلك السنوات. لم أضف إليه شيئاً. ولم أُعد إلى ذاكرتي مشهداً لها كنت نسيته أو أهملته. اكتفيت بما جمّعته من مشاهدتي لها في تلك السنوات الأولى، أو بما كنت حفظته من الكلمات القليلة التي

سمعتها منها، ولم أزد عليها شيئاً. ذلك يشبه ألبوم الصور الذي، حتى وإن بقيت بعض صفحاته فارغة، نظلّ مبقينها فارغة مكتفين بالقليل الذي تحتويه.

لا وجود لذاك البيانو بين الأشياء القليلة التي أتذكّرها. لا مكان له في ذلك الألبوم الذي لم يعد ممكناً أن أزيد، الآن، صورة على صوره. لا ينبغي أن أتردّد وأجامل. لا أريده.

- ما بدّي ياه ، ما بيعني لي شي.

- أفّ... أفّ... كإنّي ورّطتك؟

- لا لا، ما حدا ورّط حدا. ما بدّي ياه لإنّي ما بعرف شو بدّي أعمل فيه. يمكن يكون البيانو تبعها فعلاً، بس أنا بصراحة ما حسّيتو بيذكّر فيها. يعني ما قدرت إتصوّرها عن جدّ قاعدة على الكرسي تبعو. ما قدرت إتخيّل وجهها كيف يمكن يكون لما إيديها يكونوا عميعزفو الموسيقى.

- أوكي... أوكي فهمت. أنا رح قلّلوا على كلّ حال إنّو ما بدّك ياه. مش مشكلة، ما تنهمّ.

مرّة أخرى، فيما أنا أقفل التلفون، رحت أفكّر في ما يجعلها تتحمّل سخطي وإهمالي لتعاود من بعدهما استئناف سعيها في ما سمّيته ملفّ دلال. في أحيان أقول إنها تعلم أنّني لن أصل إلى شيء، وأنّ ما تفعله في سبيل ذلك هو في انتظار أن أقتنع أنا بأنّني بلغت آخر الطريق في بحثي عن دلال وأنّي لم أجد شيئاً ولم أصل إلى شيء، أو أنّها لن تظلّ منتظرة حتى الوقت الأخير ذاك، إذ تحسب أنّ ما قد يتغيّر بيننا سيتغيّر في يوم ما قبل ذلك، أو في لحظة ما على الأصحّ. أعرف أنّ ذلك يمكن أن يحصل، ليس في ما يتعلّق بنا، أنا وهي أقصد، بل يمكن أن يحصل لأيّ اثنين يكونان غير مدركين أنهما، من دون أن يكونا قد تهيّأا لذلك، يجدان فجأة وقد صار كلّ منهما أمام شخص آخر لم يكن يعرفه من قبل.

سعاد تنتظر، لا بدّ. وهي في أثناء ذلك تلعب وتتسلّى. وهي ربما تذهب باللعبة إلى أبعد، كأن تحضر لي امرأة وتقول لي هذه المرأة هي لك، جاءت من أجلك، أنا دعوتها لتكون لك. ربما تعرف أنّ من أتت بها في تلك السهرة لا تعجبني، لكّنها كانت تغامر رغم ذلك. حتى إن راقني الخروج مرّة واحدة مع تلك المرأة، ليلة واحدة، سيكون ذلك لسعاد وقوعاً في خطر المغامرة. هي تلعب وتتسلّى، وتغامر أيضاً. وأنا أتفرّج، غير مستعجل، وإن كنت بين وقت وآخر أجري تلك التمرينات التخيّلية على شفتيها حين تكون تتكلّم أو تبتسم، وعلى رقبتها حين يكون شعرها مرفوعاً إلى الأعلى، وعلى يديها اللتين كثيراً ما أجد نفسي متسرّقاً النظر إليهما.

* * *

فكّرت في أنّهن قد يرفضن دعوتي إلى واحد من المقاهي حتى وإن كان غير بعيد عن مكان جلوسهنّ. ليس لأنّهنّ يجدنني وقد استعجلت مرافقتهنّ بل لأنّي لا أعرف، بل لا أستطيع، أن أقف أمامهنّ هنّ الثلاث وأقول لهنّ إنّي أدعوكنّ إلى تناول شيء في المقهى. استبدلتُ ذلك بعلبة الكرواسان التي، فيما أنا أتقدّم منهن واضعاً إيّاها على باطن كفّي، لن تحرجني. أستطيع مثلاً أن أكمل طريقي مبتعداً عنهنّ والعلبة لا تزال مطروحة كما هي علي يدي، أو أستطيع، إن أتاح لنا الكلام الذي سنتبادله، أن أقول لهنّ إنّها لنا، لهنّ ولي، وأزيد على ذلك سؤالهنّ إن كنّ مثلي ما زلن لم يتناولن فطورهنّ بعد، أو إن بدا أنّ محادثتي معهنّ لن توصلني إلى ذلك، أكتفي بوضع العلبة بينهنّ، عند مكان أجده مناسباً على المقعد، وأقول لهنّ إنّني أحببت أن أذيقهنّ ما تذوّقته وأعجبني، ثم أنطلق مستأنفاً مسيري إلى عملي.

ولم أفكّر في أنّ علبة الكرواسان ستربكني إلا حين حملتها. بدوت، بعد خروجي من المحل، كأنّني أقدّمها، مثلما تُقدّم الهديّة، إلى الناس الذين يمرّون بي على الطريق. كان حجمها كبيراً ولا طريقة لحملها غير أن أبدو أنّها تتقدّمني وأنا أتبعها. إلّا أنّ

البنات الثلاث، حين بتّ قريباً منهنّ، كنّ يتمازحن ويتضاحكن ضحكات خفيفة. ولم يتراجعن عن مرحهنّ ذاك حين رأينني قادماً. لا أكثر من التفاتة نحوي أعقبتْها التفاتات أخرى كنّ يعدن بعدها إلى التحاور الضاحك الذي كنّ فيه. وأنا تقدّمت إليهنّ مبتسماً مهيّئاً نفسي لأشاركهنّ مرحهنّ. ثم التفتن إليّ معاً، هنّ الثلاث، وأزحن نظرهنّ بعد ذلك إلى ما أحمله. وأنا، مسابقاً احتمال أن يتلاشى مزاحهنّ ومرحهنّ، قلت لهنّ إنّي تذكّرتهنّ وأنا في طريقي إلى مكتبي. ولم أنتظر أن ينظرن بعضهنّ في وجوه بعض متسائلات كيف ينبغي لهنّ أن يتصرّفن. قلت لهنّ أيضاً إنني لم أتناول فطوري بعد، ثم أضفت إنهنّ ربما كنّ هنّ أيضاً يتأخّرن في تناول فطورهنّ.

كان يلزم أن يبدين تجاوباً يشجّعني على أن أستمرّ في الكلام والابتسام. لكن لم يتأخّر الوقت بهنّ حتى انقلبت سحنة وجوههنّ، فرحن يبدين متسائلات لماذا جئت هكذا إليهنّ وماذا أريد من وقوفي هكذا بينهنّ. كأنّهنّ عرفن كيف يسكتنني. وأنا لم أتوقّف عن الكلام فقط، بل رحت أرتبك ولا أعرف ماذا أفعل بتلك العلبة التي بتّ حاملاً إيّاها بيديّ الاثنتين. لم أعرف ماذا أفعل. بدا لي ما أحمله مورّطاً لي، ولم أستطع أن أزيد كلمة إلى ما قلته. وإذ رحت أنتظر منهنّ أن يقلن شيئاً، أو أن يفعلن شيئاً، أيّ شيء، أقوم من بعده بخطوة أجدها مناسبة للهروب، حاملاً علبتي معي أو واضعاً إيّاها على المقعد الذي تركن فيه مساحة واسعة خالية، اقتربتْ مني تلك التي تولّت الكلام معي يوم تطاير الأوراق، ثمّ مدت يديها لتأخذ العلبة مني

- أو... ثانك يو مستر، ثانك يو، قالت بعد أن رفعت قليلاً غطاء العلبة ونظرت ما في داخلها.

ما كان أريده هو أن أغادر من فوري، وقد بدأت بالنظر إلى ساعتي لأنفذ بعد ذلك من بينهن.

- وي تو دو نات إيت يت، قالت هي نفسها مقترحة عليّ أن أظلّ بينهنّ.

وهي أشارت بعد ذلك إلى رفيقتيها لتساعدانها في ما لم تعرفا ماذا عليهما أن تفعلاه. كان يكفي أن تهمّا بذلك، أن تتحرّكا كأنّهما تستعدان لأن تأخذ إحداهما العلبة من يدها أو أن تفعل الثانية ذلك بدلاً منها.

- آي مَست غو، آيام سُوري، ذاي آر وايتنغ إن أوفيس، قلت ناظراً إلى ساعتي مرّة أخرى.

- أوكي سير، نيفير مايند، قالت فيما هي تستمهلني بحركة من يدها، ثم رفعت العلبة إليّ بعد أن فتحت غطاءها.

- بليز...

تناولتُ واحدة بعد أن أبديت نفسي حائراً أيّها أختار

- ثانك يو مستر، قالت فيما أنا أبتعد حاملاً قطعة الكرواسّان، ثم تبعتْها رفيقتاها مكرّرتين الشكر من بعدها، مرّة ثم مرّة أخرى لكن مهيّئات أنفسهنّ للعودة إلى مرحهنّ، لكن لأكون أنا موضوع تضاحكهنّ هذه المرّة.

* * *

كانت تلك التي تتصرّف كأنها قائدتهن قد خلّصتني ممّا أوقعت نفسي فيه. لكنّني رغم ذلك لم أعرف كيف أبدو غير مرتبك وأنا أخطو الخطوة الأولى مبتعداً عنهنّ. لقد فشلت في محاولتي تلك، الطائشة المتسرّعة. كان عليّ ألا أستسلم لما خطر لي، هناك عند باب ذاك المحلّ. كان عليّ أن أفكّر بما يكفي قبل أن أروح، مزهوّاً بما خطر لي، أشير للفتاة على الجهة الأخرى من الواجهة: أريد هذه، ثلاثة منها، بل أربعة وهذه، وهذه أيضاً اثنتين، بل ثلاثة، وهذه أيضاً، ثلاثة أو أربعة... فيما إصبعي الممدود يتنقّل بين القطع مثلما تفعل النساء المزهوّات وهنّ يشترين ما يعجبهنّ.

كان ذلك محرجاً لي ولهنّ. كنت أسير مسرّعاً خطواتي كأنّني مستمرّ في هربي منهنّ. هل هنّ يفكّرن الآن بأنّني أحضرت الكرواسان لهنّ ظانّاً أنّهن سيقبلن به على

الفور؟ هل كنت أظنّ أنّهن يقبلن هكذا ما يُعطونه؟ أو هل بدوت لهنّ رجلاً كهلاً يفعل ما يفعله الكهول، إذ يخطئون في ما يبادرون إليه؟ هل إنّني أخلط بين ما يصحّ وما لا يصحّ؟ هل بات عليّ، أنا الظاهر هناك في واجهة المحل التي أرى فيها نفسي الآن، مسرعاً لتتلقّفني الواجهة الثانية، هل بات عليّ أن أتصرّف بحسب ما يمليه عليّ العمر الذي صرت فيه؟ العمر الجديد الذي لا أتعلّم كيف أكون فيه إلا بعد تلقّي الصفعات. هذه صفعة لأنني لم أعرف من تلقائي أنّني، مثلاً، لا ينبغي أن أمازح تالا كما مازحتها لأنّني كنت كأنني أقلّد من هم في عمرها. لم تضحك تالا، أو أنها ضحكت، لكن قليلاً، كأنما لتبلغني أنّها فهمت أن ما قلته كان نكتة وها هي تضحك لها. وتلك كانت صفعة أخرى يوم تدخّلت بينهم، هم الشباب، زملائي الشباب، فرحت، يوم اجتمعنا على الغداء في المطعم، أتكلم مثلما يتكلّمون لأبدو مثلهم، واحداً منهم. لم أكن في حاجة إلى أن أنتظر كيف وقع ذلك عليهم، كيف كان ردّ فعلهم، لأعرف أنّني كنت بائخاً أو متدخّلاً أو مقلّداً أو مستعيراً. وهم ابتسموا أيضاً. تلك الابتسامة التي بتّ أعرفها، والتي يعودون من بعدها إلى تضييق الحلقة التي تجمعهم حتى تصير رؤوسهم أكثر تحلّقاً وكلامهم متقطّعاً، كلمة تقال وكلمة لا تقال.

بات يحسن بي أن أعرف ما يلائمني وما لا يلائمني. أن أعرف إن كنت قد أخطأت بارتداء هذا البنطلون الذي يظهر رجليّ نحيلتين تحت جسمي العريض. أن أعرف أيضاً أنّ ما كان يليق بي وأنا في الثلاثين، أو حتى في الأربعين، لم يعد يليق بي. أنّني، بتلك النظرة التي لي، النظرة التي كنت أعرف من بعدها أنّني قُبلت وأغويت، لم أعد واحداً ممن أنا بينهم ولا مغوياً لمن يعجبني منهم.

* * *

قال لي إميل الذي كان واقفاً ينتظر نزول المصعد إنّ طلال قد أتى، وهو فوق في المكتب. ثمّ أبلغني أنّه وجده هنا منتظراً رغم أنّه جاء مبكراً. "وصلت في الثامنة

وعشر دقائق وكان هنا" قال إميل، متّخذاً هيئة المتسائل عن معنى ذلك. وحين فتحنا باب المكتب للدخول رأينا طلال واقفاً في المدخل، ينظر حوله كأنّه يبحث عن شيء. قال له إميل "رحت وجيت وجبت الأستاذ معي". ابتسم لي طلال، تلك الابتسامة الودودة التي أعرفها، والتي تظلّ مصاحَبة بنظرة يبدو بها كأنّه يسأل عن شيء.

- كيف لندن؟

- عادي، متل ما هيّي.

كان لا يزال وحده في المكتب.لم يكن قد أتى أحد من الموظّفين بعد. وقد وشت بذلك تماماً مقاعد غرفة التحرير الخالية كلّها. لكنّه لم يعلّق بشيء. لم يقل مثلاً إنّنا بتنا في العاشرة ولم "يشرّف" الشباب، كما قد يقول صاحب عمل غيره. حتى إنّه لم يرفع ذراعه لينظر إلى ساعته، تلك الحركة الشائعة للتعبير عن انزعاج صاحب الشغل من تأخّر موظّفيه.

- بتحبّ نقعد بغرفة الاجتماعات، سألني.

ملت برأسي بما يعني أن لا فرق في أين نجلس. كان إميل قد توجّه من فور وصوله إلى مكتبه، مظهراً الدرجة الصفر من الحشرية تجاه ما لا يخصّه، بحسب ما يردّد عادة، بالإنكليزية. قبل أن نجلس سألني طلال إن كنت أحبّ أن ندير مكيّف الهواء. قال إنّ الجوّ ليس حارّاً على كلّ حال، ثم أضاف بعد أن ألقى نظرة من النافذة المفتوحة إلى الخارج إنّه يحبّ بيروت في هذا الوقت من السنة. وأنا أثنيت على ذلك بكلام مجامل.

كنت قد هيّأت نفسي لأبلغه رغبتي في الاستقالة، لكن ليس قبل أن أعرف تفاصيل أخرى عمّا قاله لي في محادثتنا على السكايب.

- إيه، قال بعد أن صرنا وجها لوجه على طرفي الطاولة.

لم أتأخّر في العودة إلى حيث كنّا في محادثتنا تلك: ’’قلت لي إنو ما في شي عجبك من المقالات؟‘‘.

- يعني، يمكن نقدر ناخد عشرين بالميّة منهن.

- يعني فيه مقالات معقولة؟

ابتسم فيما هو يرفع نظرته إليّ، لأفهم أنّني بدأت هجوميّاً.

ابتسمت له أنا أيضاً، معلناً أّني لم أقصد ذلك: ’’لكن قل لي هالعشرين بالميّة عجبوك فعلاً؟‘‘.

لم يبد عليه أنّها أعجبته فعلاً، حتى العشرين في المئة هذه. كان يكتفي بالنظر إلى يديه الممدودتين على الطاولة أمامه، كأنما بانتظار أن تكتمل في رأسه الكلمات. وهو بدأ بقولها كأنّه يجرّب إن كان أجاد تأليفها:

- اللي بدنا ياه شي تاني، إذا كنا رح ننشر المقالات اللي فينا نقراها بالجرايد والمجلات، لشو عمنعذّب حالنا وندفع كلّ هالمصاري.

كان إميل قد ذكر لي المبلغ الشهري الذي يدفعه طلال للمجلّة. وجدت ذلك مهولاً، ورحت أفكّر كم تبلغ ثروة من يستطيع أن يتحمّل دفع مبلغ كهذا كلّ شهر. قلت لإميل إن هواية صاحبنا هذه هي أكثر الهوايات كلفة، وها أنا، وجهاً لوجه مع طلال على الطاولة، أفكّر أنّه هو نفسه بات يدرك ذلك، بعد أن تبيّن له أنّ تمهّله لم يفده في شيء، وها إنّ عليه أن يبدأ من جديد، ومن دون أن يعرف كيف يبدأ ومن أين.

- شي جديد يا قاسم... ما بعرف شو هوّي، بس بقدر أعرفو إذا قريتو بشي محلّ.

هو يبحث عن الجديد الذي يحسّ بإشعاعه لكن من دون أن يعرف ماذا هو ولا يعرف كيف يكون. الإشعاع فقط، أو ما يحسّ بأنّه الإشعاع. ذلك يعني أن الطموح كبير، لكن نحو شيء لا يرى ولا يُلمس. فكّرت في أنّني كنت محظوظاً في أيّام ما كنت طموحاً مثله. كانت كثيرة الأشياء التي أحلم بتحقيقها، أو يحلم بتحقيقها من كانوا

حولي. وكنّا، رغم كثرتها، نحلم بأن ننجزها كاملة، كلّها معاً، فسوى ذلك ليس من معنى للطموح.

- إللي بخاف منّو هوي الفشل، ما بحبّ إفشل.

كان يمكنني أن أقول له إنّ هناك مجالات أخرى يثبت فيها نجاحه أو فشله، لكنّني، إن قلت ذلك، سأكون كأنّني أنعى له مشروعه هذا.

- لكنّك ما بتقدر تكون متطلّب لحدّ إنّك ما تلاقي ولا حدن يعجبك. خبّرني، مقالاتي أنا عجبتك؟

بدا كأنّه في حاجة إلى أن أذكّره بها:

- مقالاتي، المقال عن فيلم السينما اللبناني والمقال عن كيف وصلت الأسعار بلبنان ليكون أغلى بلد بالمنطقة.

- مبلا، معقول... بس كمان بدنا نفتّش عن شي تاني نكتبو.

- بس أنا هيدا اللي بعرفو، يعني بدّك إنّي أنا كمان بلّش من جديد؟

ضحك. بل بدا كأنّه أخفى ضحكة لا يحسن به إظهارها. فكّرت في أنّ الأغنياء مثله تضحكهم أشياء لا تُضحك سواهم. وهم يعرفون هذا، لذلك حاول طلال إخفاء ضحكته.

- مش قصدي إنو نبلّش من جديد، اللي نحنا بحاجة إلو هو إنّو نمسك طرف الخيط، يعني نعرف كيف بدنا نبلّش.

إنّه يقترح عليّ أن أؤجّل الكلام عن الاستقالة، وهذه واحدة من تجاربه في تمديد المهل وإطالتها. وهو، كما قال، اتّصل بصحافيّين بريطانيّين يعمل أحدهما صحافياً في مجلة أسبوعية والآخر يعمل مستشاراً إعلامياً لصحف بريطانية محلية. هذان سيأتيان في زيارة إلى بيروت وسيعقدان اجتماعات مطوّلة مع فريقنا كلّه كما قال.

المزيد من الموظّفين الجدد. المبلغ المهول الذي ذكره لي إميل سيزاد عليه راتبان، إنكليزيّان هذه المرّة. كلّما رأى أفق المجلّة مسدوداً أمامه يروح يفتّش عن موظّفين، أومخلّصين، جدد. لم أقل له إنّ الرجلين قد يكونان بلا فائدة، إذ ماذا يعرفان عن القارئ العربي، وماذا يعرفان عن قضاياه ومشكلاته حتى يقترحا علينا كيفية تناولها.

- مش لازم نفشل؟ قال، ثم كرّر ما كان قاله من أنّه لا يحبّ الفشل. ذلك، إن حدث، سيصيبه بالمرارة كما بدا لي، إذ تخيّلت أنّ هناك كثيرين متربّصين به، ليس هنا في لبنان ما دام أنّه، بحسب ما أظنّ، لا يعرف أحداً فيه. ثمّ من يمكن أن يكون هؤلاء ما دام قد أتى إلى الصحافة والمجلات من عالم أعمال مختلف كلّياً.

- يعني نحنا بانتظار الإنكليز؟

- لا... لا فينا نضل نشتغل. شباب الإخراج رح يخلّصو بكرا الماكيت التانية، واللي عميشتغلو على الموقع كمان عميشتغلو...

* * *

أستطيع أن أقوم بتلك التجربة مع سعاد. أعرف أنّ اثنين، أيّ اثنين، أيّ رجل وامرأة، التزما حدّ الصداقة أو الرفقة سيكون صعباً عليهما تبديل العلاقة التي بينهما. ربما يكونان، في أثناء ما هما متّفقان على ما هما فيه، غير غافلين عن احتمال أن يتحوّل ما بينهما إلى وضع آخر. بل ربما يكون كلّ منهما منتظراً تلك اللحظة التي يطلع فيها من ركام الثرثرة واللقاءات التي لا معنى لها، ذلك الشيء المختلف. قد يحدث ذلك ما دام الذي بين الاثنين لم يصل إلى نفور أحدهما من الآخر؛ ما دامت النبتة فيها جذر حيّ، كما قال رجل النباتات الذي جيء به مرّة إلى حيث كنت أعمل لإنقاذ الحديقة الصغيرة من يباسها.

ما زال ممكناً لي أن أقوم بتلك التجربة مع سعاد. صحيح أنني لم أحظ بعد برؤية ذلك الشيء المختلف، إلّا أنني سأعرف كيف أثيره وأحرّكه. أما ما سأبدأ به فتلك

الخطوة الأولى، الخطوة المفتعلة أو المصطنعة التي سأكون بها كأنّني أمثّل دوراً لتجد هي نفسها، بعد قليل، مشاركة في أدائه. وهي تنتظر أن يحصل ذلك، أعرف، على الرغم من الألاعيب الكثيرة التي تموّهه. بل ربما لن تنتظر أن نقطع شوطاً في دورنا التمثيليّ ذاك، إذ إنّها سريعاً ما ستستجيب، منذ أن تتلقّى ما ستعتبره الإشارة الأولى.

* * *

- ألو سعاد؟

- أيوه.

- قاسم... أنا قاسم.

- بعرف... رقم تلفونك مسجّل عندي.

قالت ذلك بنبرة هازئة، كأنما لتقول مَن من الناس لا يعرف أنّ الأسماء تظهر على شاشات التلفونات.

- مشغولة شي...؟ عمالهيكي عن شغل؟

قلت من أجل أن أخرجها من المزاج الهازئ.

- لا... لا أبداً... أنا بمحل بالبلد... في شي...؟

- لا... لا... كنت زهقان، قلت بتلفن، على كلّ حال برجع إحكي بعدين.

- لا، مش مشكل، فيّي إحكي، بدّك إطلع لبرّة؟

- لا، خلّيها لبعدين، بحكي بعدين.

لم تعلّق، بل إنّها راحت تكلّم أحداً هناك قبل أن تقفل التلفون.

كانت تشتري شيئاً لا بدّ من أحد محال الجزادين والأحذية. كان عليّ أن أختار وقتاً آخر، أن أنتظر حتى المساء مثلاً.

لكن لم يطل بي الوقت حتى رنّ منبّه التلفون، وأنا عرفت أنّها هي.

- ألو... إيه، انشغل بالي، في شي؟

- كنت بس زهقان، وقلت لازم إحكي مع حدن.

- مع حدن؟ ردّت محتجّة.

- لا، مش أيّ حدن...

- كان لازم تقول بدي إحكي معِك إنتِ خصوصي.

- على كلّ حال أنا تلفنت إلك إنت... خصوصي.

- ليه زهقان؟

- جايي على بالي شمّ الهوا.

- ياللا، منشمّ الهوا... وينك هلّق؟

- لا، مش ضروري هلّق، يمكن بالسهرة.

- أنا وإنت tête à tête؟

- أنا وإنتِ tête à tête

* * *

من ذلك البرنامج العلمي، الصعب والمعقّد، والمليء بالصور الشعاعيّة والرسوم البيانية الكثيرة الأنواع والأشكال اكتفيت بتلقّي تلك الفكرة الواحدة: نحن نمتلك قدرات تساعدنا في تسيير حياتنا العادية، نستخدمها كلّ يوم مرّات كثيرة، ولا ننتبه كم هي خارقة ومذهلة. فمثلاً، من نظرة واحدة إلى وجه امرأة أو رجل عبَر في الشارع أمامنا، ولتكن نظرة سريعة لا يتعدّى طولها جزءاً من الثانية، تقوم أدمغتنا بعمليات تعرّف على الوجه وتبيّن إن كنا قد رأيناه من قبل، وإن كان من الوجوه الأليفة، أو الجميلة، وإن كان يشبه أحداً نعرفه وإلى أيّ حد، كما إنّنا نصنّفه أيضاً بردّه إلى خانات الوجوه التي يشترك معها في ملامحه. ذلك يشبه عمليات التصوير السيني المقطعي، بحسب العالِم المشارك في البرنامج، لكن في وقت أكثر من قياسي،

خصوصاً أننا في هذا الوقت نقوم بما يشبه أن يكون دراسة البيانات المتعلّقة به كلّها.

يخطر لي أنّني، في تلك السهرة مع سعاد، سأحتاج إلى قدر مماثل من الذكاء وأنا أفتّش بين كلامها عمّا تقصده من كلامها ولا تقصده، عمّا تصدّقه من كلامي ولا تصدّقه، كما سيكون عليّ أن أفصل في كلامها بين ما يحتمل أن يكون ساخراً وما يحتمل أن يكون جادّاً. سيكون عليّ أن أتمعّن في كلّ كلمة تقولها وأن ألصقها بما سيظهره وجهها أو يخبّئه فيما هي تقولها. ستكون هذه تجربة صعبة، وها هي تبدأ من قبل أن تصل:

- ألو قاسم، أيّ ساعة لازم كون عندك؟
- متل ما اتّفقنا، تماني ونصّ.
- يعني هلّق، بعد تلت ساعة.
- ليش، في شي؟
- لا لا ، بس خيفاني إتأخّر... كان عندي ناس ما كانو يقومو.
- معليش، بس أيّ ساعة رح توصلي؟
- لعندَك؟
- إي لعندي، أنا بعد شي ربع ساعة بكون هونيك.
- لو فيك تضيّع شويّة وقت، على كلّ حال أنا رح عجّل.

ها هي بدأت بذلك من قبل أن تصل. وأنا سأتصرّف كما لو أنّ سبب تأخّرها هو ذاك الذي ذكرتْه، وأن سبب سؤالها عن وقت لقائنا هو نسيانها له حقّاً. لن أغضب، لن أقول لها إذا كنت مشغولة فلنؤجّل لقاءنا إلى يوم آخر. سأنتظر أن تأتي، على أن أبقى على حذري، لكن مهيّئاً نفسي لأرتدّ عمّا كنت قلته أو أوحيت به.

كأنّني قد بكّرت فعلاً، إذ كان المطعم خالياً حين دخلت. قال لي النادل إنني أستطيع أن أجلس حيث أريد، وهو، حين عرف أنني أنتظر امرأة ستنضمّ إليّ، أشار لي بيده

إلى الطاولة التي تشرف على نافورة ماء يحجز الزجاج الفاصل صوتها. لم أشأ أن يكون جلوسنا منعزلاً هكذا ورومنطيقياً. قلت له إنّني أفضّل أن نكون في المكان هناك، قريباً من البار، حيث توقّعت أن تزدحم المقاعد العالية بأولئك الذين لا يطيلون البقاء.

وقد اتّصلت سعاد مرّة ثانية لتعلمني بأنّها باتت قريبة. كان في صوتها تلك النبرة السريعة التي توحي بأنّها منهمكة في تخليص سيّارتها من الزحام. "أنا هون... ناطرِك" قلت لها بادئاً الكلام المتقرّب، لكن الذي قد لا يعني شيئاً أيضاً.

ولم يتأخّر وصولها. من الباب الواسع، الزجاجي هو أيضاً، رأيتها تسلّم سيارتها لرجل المرأب. وحين انفتح لها الباب الزجاجي رفعت يدها لي بما يشبه أن تقول إنّها وصلت وها هي آتية. كانت تحمل حقيبة يد غاية في الصغر تتدلى من سلسلتها المذهّبة المعلقّة بكتفها شبه العارية، إذ كان قماش فستانها الأسود منحسراً ولا تغطّي تلافيفه الكثيرة إلا مساحة قليلة تحيط برقبتها، وضامّة نهديها مبرزة إياهما.

- اشتقتللي؟ قالت بالطريقة الملتبسة ذاتها، طريقة ما قلت "ناطرِك"، لكن ليكون معنى ذلك متراوحاً بين الجدّ القليل والمزاح الكثير.

وقد أعفاني ذلك من أن أقوم بمراسم استقبالها كما ينبغي لرجل يستقبل امرأة. اكتفيت بأن قمت لها وأشرت بيدي إلى الكرسي الخالي لها. ثمّ، وقبل أن أعود إلى الجلوس، سألتها إن كانت تجد مكاننا هذا مناسباً. وهذا ما جعلها تنظر حولها وتقول، متحوّلة إلى ما اعتبرتُه مشاكسة عابرة: "حدّ البار؟!".

ثم قالت إنها تحبّ أن تجلس على كرسي البار حتى، لكن حين تكون وحدها. وأنا أجبتها، بادئاً مغامرتي على الفور، إنّني أحبّ أن أراها جالسة هناك، وحدها، ورحت أحثّها على أن تقوم وتفعل ذلك، فقط من أجل أن أراها كيف ستكون.

- هيك، والمطعم فاضي، عالقليلة لازم يكون في ناس عميتطلّعو.

لم أعلّق. لم يحضرني شيء أقوله. وقد أخرجت نفسي من ذلك بأن قمت بحركة تجاه النادل، وسألتها في الوقت نفسه ماذا نشرب.

لم تجب، لكنّها انتظرت مجيء النادل الذي، حين صار واقفاً أمامنا على الطاولة، تولّت هي سؤاله ماذا لديه ليسقينا.

- كلّ شي.

- كل شي من شو؟

أوقعتْه في حيرة حاول مداراتها بالابتسام، وهي من أجل أن تمحو تعليقها الذي بلا معنى سألتني إن كنت أفضّل الويسكي على عادتي.

- ويسكي.

- وأنا ويسكي كمان... منشان نضلّ مع بعضنا.

كأنّها قرّرت أن تشاكس في الكلام هكذا من قبل مجيئها. لم يسبق لها أن كانت مستفزّة النبرة هكذا. ما عليّ فعله هو أن أراقب وأنتظر. ألا أنطق بكلمة يصير صعباً عليّ التراجع عنها. سأتركها تتكلّم، وأنا سأظلّ مترقّباً، موقفاً نفسي عند ذاك المفترق الذي يتيح لي إما أن أذهب قدماً نحو ما خطّطتُ له، وإما أن أكمل مراوحاً الخطوات بحسب علاقتنا السابقة ذاتها.

- أهلاً وسهلاً، قالت، قاصدة أن نبدأ الكلام في ما دعوتها لأجله.

- أهلاً... حلو فستانك.

- وإنت كمان حلوين تيابك.

بذلك نكون قد اتّفقنا على أن لا شيء محدّداً أقوله. كما أنّني أوقفت كلام المجاملة الذي كان عليّ أن أضيف إليه شيئاً. وسكتت هي أيضاً لنبدو أنا وهي لا نفعل شيئاً إلا انتظار النادل حاملاً إلينا كأسَي الويسكي.

- هاي أوّل مرّة منضهر هيك سوا، قالت في ما بدا لي أنها طريقة أخرى للسؤال عمّا جئنا لأجله.

- يعني منشان نشوف بعضنا بطريقة تانية.

وقد أوقف وصول النادل كلامنا المتعثّر أصلاً.

- كاسَك.

رفعت كأسي وأنا أنظر إلى كتفيها العاريين ورقبتها.

- كاسِك، قلت كأنّني أرفع نخب ما تنظر إليه عيناي اللتين أسرعتُ إلى غضّهما عن كتفيها ولأنظر من ثمّ إلى قائمة الطعام التي كان وضعها النادل أمامي على الطاولة.

وهي لم تتأخّر عني. رفعت القائمة التي أمامها وجعلت تنظر إلى غلافها البنيّ المذهّبة أطرافه.

* * *

الكلام الذي بدا مشاكساً بعضه بعضاً كان ينبغي عليّ أن أُوقفه. التعليقات التي راحت تُرمى كمفرقعات صغيرة كانت تردعنا عن أن نتقدّم في ما دعوتها لأجله، أو تردعني أنا على الأقل، فأتراجع وأنضبّ على نفسي. كان يمكنني أن أنتظر لحظة صمت تطول قليلاً، فأمدّ يدي إلى يدها، هكذا مثلما يحدث دائماً في لقاء من يكونان معاً مترقّبين لما سيأتي به لقاؤهما الأوّل. كان عليّ أن أبادر، أن أمدّ يدي لتحضن يدها في الوقت الذي يوصلها صمتها إلى نسيان كلامها المشاكس. كان عليّ أن أبادر، من لحظة ما أتبيّن قبولاً تشي به نظرة منها أو ابتسامة. أن أبدأ تلك الخطوة التي تطوي سجلّ الكلام، الخطوة الحاسمة، خطوة وضع يدي فوق يدها، تلك التي، حتى وإن بقينا في صمتنا من بعدها، إلا أنّه سيكون صمتاً من نوع آخر. سيكون صمتاً آخر ترتفع معه عيناها لتنظرا في وجهي، متسائلتين، وسيكون تساؤلاً من نوع آخر هو أيضاً. وربما يتحرّك إصبع لها تحت يدي، حركة خفيفة قليلة كأنّه يحاول أن يلمس اليد التي

تكون ملامسة إيّاه أصلاً.

ترقّبت كثيراً تلك اللحظة، اللحظة التي أشعر فيها أنّها ستستجيب بأن تُبقي يدها حيث هي تحت يدي. من أجل ذلك رحت أترقّب تبدّلات وجهها وصمتها وحركة يديها أيضاً. وكنت أرى في أحيان أنّ ذلك ممكن الآن، فأهمّ، لكن سريعاً ما يتبدّل ملمحها الذي دعاني إلى أن أمدّ يدي نحو يدها، محاولاً ومحاذراً، سنتمتر واحد أو سنتمترين إلى الأمام.

لم أفعل. لم تتقدّم يدي نحو يدها ولم يحصل شيء في تلك السهرة. حتى إننا لم نستطع أن نكون مثلما كنا من قبلها، على عادتنا السابقة متفاهمين على الأقلّ حول كلامنا عن الناس الآخرين، حول الذين تدعوهم إلى السهر في بيتها، وحول النساء اللواتي تعرف هي أنّهن لا يرقن لي، كما حول الشاب قريب دلال، والبيانو الذي يريد أن يبيعه لي.

كنت، فيما هي تنهض عن مقعدها لتقوم، كأنّني في حال من ينبغي له أن يعتذر. ولم أصحبها إلى الخارج كما كان ينبغي. صافحتها وأنا واقف في مكاني منتظراً أن يردّ لي النادل بقية الحساب. وقد اتّفقنا على أن نعاود اتّصالنا، أنا وهي، لكن لنكمل شيئاً لم أعد أعرف ماذا سيكون. وهي في الخارج، منتظرة أن يعود النادل بسيّارتها، لم تلق نظرة واحدة إلى حيث كنت لا أزال جالساً. وأنا كنت أدير طرفي بين الحين والحين لأراها ما زالت تنظر إلى الاتّجاه الذي ستصل منه سيّارتها.

كانت هي أيضاً تتوقّع شيئاً من تلك السهرة، وإلا لم يكن عجزنا عن أخذ الكلام إلى ما ننتظره ليصمتها هكذا. كان يمكنها مثلاً أن تستعيد كلامها المثرثر الذي لن تلقى مشقّة في اختراعه. كان يمكنها أن تعيد رواية أحداث سابقة، تلك الروايات التي هي بلا معنى غالباً. لم تفعل ذلك، كانت قد علقت مثلي في ذلك الثقب الضيّق الذي عجزنا عن الخروج إلى جهته الثانية.

* * *

- بتعرف يا وائل، في إشيا بيخسرها الواحد بس يكبر ما بيكون عامل إلها حساب من قبل.

- قصدك غير ضعف النظر والسمع وتساقط الشَعر؟

كان وائل قد سبقني إلى ذلك المقهى الجديد الذي قضيت وقتاً أفكّر فيه إن كانت الطاولات التي توزّعت في الأنحاء قديمة جيء بها من أمكنة متفرّقة. كانت عالية القوائم مثلما تكون الطاولات في المطابخ، ومطليّة بألوان لم تبذل أيّ عناية في اختيارها ومناسبة بعضها لبعض. بدا لي وائل معتاداً المجيء إلى هنا، إذ كان النادلون يكلّمونه عن أشياء حدثت من قبل، وهو كان يناديهم بأسمائهم.

- إشيا تانية غير النظر والسمع، مثلاً من نوع إنك تكون قاعد مع واحدة مرا، وتكون مفكّر إنو الأمور رح تظبط معك متل ما كان يصير بالماضي، ثمّ بتكتشف إنّو...

- ... هيدا لإنّك عمتستعمل أسلحة قديمة...

- لا، الأسلحة الجديدة هي اللي مش عم تمشي. الواحد بيعرف لحالو إنو في إشيا بطّلِت تظبط، بيبطّل يستعملها وبيصير يستعمل غيرها. بطّلتْ مثلاً إتّكل على النظرات اللي كنّا نوقّع فيها البنات لأني عرفت إنّها ما عادت تفيد. صار لازم هلّق نبيّن إنو نحنا لازم نكون مثل عماد حمدي، بيحبّونا لأنو نحنا عاقلين وبنحبهن وبدنا مصلحتهنّ.

- على كلّ حال إنت من البداية طريقتك بالحب مثل طريقة عماد حمدي، قال، مذكّراً إيّاي بتعلّقي بالسينما المصرية التي ما زلت أحبّها.

- لا، مش عماد حمدي... عبد الحليم، قلت مصحّحاً.

وهذا صحيح. ما زلت إلى الآن أحبّ على طريقة عبد الحليم، في أفلامه وفي أغانيه. لا أقصد تلك الحركات الصغيرة فقط، القليلة، لكن المشحونة بطاقة غرام مدوّخة، والتي منها تلك النظرات التي تطول أكثر قليلاً ممّا ينبغي، على أن تكون مصاحَبة بالموسيقى التي كنا نظنّها خاصّة بالأفلام العربية؛ ومنها أيضاً إمساك اليد باليد، على أن تكون الكاميرا شاهدة على ذلك، ومراقِبة عن كثب. ليس ذلك فقط ما يبقيني متعلّقاً بتلك الأفلام، بل الحبّ الذي يؤدّيه الممثّلون، الحبّ نفسه الذي كنت أعيشه كما كانوا يعيشونه في أفلام الأسود والأبيض. كنت أحبّ حبهّم إياه، حبّهم ذاته، كأنّي أخرجته من صدر عبد الحليم وأحللته في صدري أنا. الحب ذاته تجاه النساء اللواتي هنّ أيضاً لم يتغيّرن، أو لم تتغيّر فيهنّ طريقتهنّ في جعلي أُحبّ.

- عبد الحليم؟

- إيه عبد الحليم. بتعرف يا وائل أنا ما بعرف كيف إنت بتحبّ إذا ما كنت معلّق متلي بعبد الحليم.

- المهمّ هلّق، بعدو شعورك هيدا بنفس القوّة؟

- بتذكّر قدّيش كان قوي... بتذكّر منيح، يمكن اللي عميدفشنا هلّق تجاه النسوان هوي هيديك القّوة اللي مش عمنقبل إنّها صارت أضعف.

- وهلّق كيف عم تحبّ؟

- هلّق عمحبّن متل ما كنت معتاد إنّي حبّهن، بس متل ما عمقلّك، لازم الواحد يبلّش يكيّف حالو مع أوضاعو الجديدة.

- شو، هيئتك آكل شي كفّ، خبّرني شو، شو صار معك.

كنا قد أنهينا فنجاني القهوة اللذين كره وائل بقاءهما فارغين على الطاولة أمامنا. وحين جاء النادل لأخذهما سألني، غامزاً إيّاي هذه المرّة، إن كنت أرغب في كأس ويسكي.

- مش بكّير شوي؟ أجبته معيداً سؤاله وجوابي عن كأس الويسكي حيث سبق لنا أن تداولناهما حوالى ألف مرّة.

* * *

غادرنا أنا ووائل محتسياً كلّ منا كأسين مبكرين، إذ كان الليل عند انتهائنا ما زال في أوّله. قال لي فيما نحن نسيرالخطوات التي توصلنا إلى الطريق إنّه آن لي أن أقتنع بأني كبرت وأنّ العشق والغرام يسيران، في عمرنا هذا، بشكل أفضل إن كانت العواطف أقلّ.

ثم قال لي، فيما نحن نفترق ليذهب كلّ منا في اتجاهه، أن أتردّد إلى هذا المقهى الذي يمكنه أن يكون مكاناً مناسباً لالتقائنا.

على الطريق، ماشياً نحو سيّارتي التي كنت ركنتها في مكان بعيد، عدت إلى التفكير في ما كنت قلته لوائل عن السينما وعن عبد الحليم وأغانيه. وعلى الرغم من أنني كنت قد قلت ذلك لأردّ لوائل مماحكته، إلا أنّ تذكّري له أراحني مع ذلك، وإن كنت أبقيت نفسي مستعدّاً للاستمرار في المماحكة، مؤجّلاً الانفراد براحتي. ثم تذكّرت ذلك الإعلان القديم الجديد عن فيلم الوسادة الخالية الذي بثّته إحدى القنوات المختصّة بتسلية جمهور السينما العربية القديمة، بالأبيض والأسود النقيّ، والذي لم يضعف الزمن قوّة لونه، حيث كانت لبنى عبد العزيز تخفض رأسها إلى الوسادة مفتّحة العينين، لتبدأ ليلها الطويل حالمة بالحبّ.

كنت قد قلت لوائل مرّة، مبرّراً، على عادتي، ما أُتُّهم بأني متعلّق به، كيف أنه لا شيء يأتي بالماضي كاملاً مثل السينما. تصوّر أنك تعود لترى المشاهد ذاتها، بوجوه بشرها وحركاتهم وكلامهم وكذلك بالبيوت القديمة تلك، البيوت الساحرة ذاتها. أنت أيضاً يا وائل، ترجع إلى عمر السادسة عشرة أو السابعة عشرة حين تشاهد تلك

الأفلام، ما دام الذي أمامك هو ذلك الزمن. زمن ما كان فيه عمرك حين حضرت الفيلم.

ليس الوسادة الخالية، بل كان فيلماً آخر لعبد الحليم ذاك الذي حضرناه نحن طلاب المدرسة آنذاك. كان أكثر قرباً لنا، نحن طلاب المدرسة آنذاك، إذ كان فيه شيء يذكّر بالحبّ المبكّر. لكني لم أكن مركّزاً على ما أشاهد أمامي. كنت ألتفت إلى يسار ما أجلس، متخطّياً ثلاثة مقاعد أو أربعة يملأها تلاميذ آخرون، لأنظر إليها، هي دلال، متبيّناً، كلّ دقيقتين أو ثلاث، كيف هو جلوسها، وهل يبقى وجهها متّجها كلّه إلى الشاشة أمامنا، وهل تلتفت إلى من يحيطان بها، من هنا ومن هنا. لكنّني كنت أضحك لحركات عبد السلام النابلسي وحركاته، ضحكات خفيفة أشارك بها الضاحكين إلى يساري، الذين كانوا صبياناً كلّهم. خمسة شبّان أو ستة لا أعرف كيف اتّفق أن ذهبنا إلى السينما معاً. لكن أذكر أنني كنت أتصرّف كأنّني أكبرهم عمراً، مع أنني لم أكن كذلك. ذاك لظنّي أنّني يجب أن أبدو مختلفاً. أن أظلّ في الهيئة التي تدفع دلال إلى التساؤل لماذا أنا مختلف عنهم.

كان عليّ إذن أن أختبر إن كانت تهتمّ بي خصوصاً، مستثنية إيّاي. لا أعرف كيف ملأ هؤلاء الثلاثة أو الأربعة المقاعد بيني وبينها. ربما كان ذلك واحداً من اختباراتي، حيث، منذ أن صرنا في صفّ المقاعد ذاك، أسرعت إلى الجلوس منتظراً، أو متبيّناً، إن كانت ستسرع هي، قبل أن يسبقها أحد منهم، إلى أن تحتلّ المقعد الذي بجانبي. لم تفعل. كانوا يضاحكونها واقفين، هم جميعاً، فيما أنا جالس وحدي، ظانّاً أنّه لا يليق بي أن أقوم بعد أن جلست. ولم يبدأ الفيلم على الفور، وهذا ما أطال وقوفهم، متحلّقين حولها. ثمّ حين انطفأت الأضواء داعية إياهم إلى الجلوس، لم تبتعد هي عن حيث كانت واقفة. تراجعت خطوة واحدة حتى تصير فوق المقعد الأقرب إليها، ذاك البعيد

عني، والذي يحتاج مني إلى أن أقدّم جسمي ورأسي إلى الأمام لكي أتمكّن من أن أراها، أو لكي تتمكّن هي من أن تراني، بحسب ما رحت أترقّب.

وذاك ما كان عليّ أن أختبره أيضاً. بل أن أذهب في الاختبار إلى أبعد. فقد قرّرت أن أقوم، ماشياً من أمامهم جميعاً، جاعلاً إياهم يتراجعون وهم في مقاعدهم، متيحين لي أن أمرّ. وكنت أقول كلمة الاعتذار، مرّة بعد مرّة: "باردون... باردون... باردون.."، ثمّ حين صرت أمامها، في الفسحة القليلة الضيّقة تلك، نظرتُ إليها فيما أنا أردّد اعتذاري، ثمّ تخطّيتها مكملاً خروجي من الصالة.

خرجتُ من أجل لاشيء، من أجل ألّا أفعل شيئاً.

هناك، في الممرّ العريض المضاء بالنور المتدفّق من النوافذ الزجاجيّة المستطيلة، رحت أنتظر مرور الوقت لأعود من بعده إلى مقعدي. وكان عليّ أن أطيل دقائقه رغم ذلك، من أجل أن يزداد تساؤلها، وقلقها ربما، بسبب تأخّري. دقائق طويلة رحت أنتظر انقضاءها وأنا هناك، تاركاً إيّاهم جميعاً في الفيلم الذي يطلع الضحكات قويّة، وفي ذلك القرب حدّ التلاصق، بين من هو جالس في تلك الجهة قربها ومن هو جالس في الجهة الثانية. ثمّ تلك العتمة التي لا تخفي ما قد يجري بل التي قد تشجّع عليه. كانت الدقائق طويلة وثقيلة، لكنّني مع ذلك بقيت واقفاً في مكاني، دقيقة أخرى، ثم دقيقة ثانية أخرى. ثم، هذا يكفي، قلت، وبدأت عودتي إلى الداخل.

حين عبرت من الباب، ثم من الستارة المخملية الملمس، وجدت أني قد صرت في قلب العتمة، لكن على الشاشة كان وجه زبيدة ثروت الممتلئ بسعادة الغرام الأوّل. كان نور الخارج مالئاً عينيّ، وأنا عرفت أنّ عليّ أن أبقى دقيقة أخرى هناك، قرب الستارة، كي أخفّف من وطأة العتمة. وفيما أنا أنتظر، غاضّاً عينيّ عن النظر إلى الفيلم لأسرّع بذلك قوّة نظري، سمعت خطوات تتقدّم من حيث أقف، ثمّ وصل ذلك

الجسم الذي توقّف حين صادفني أمامه، هكذا، كأنّه فوجئ بشيء اعترض طريقه. ثم: ”فين كنت... إنشغلنا عليك“.

* * *

ما زلت أذكر وقوفنا هناك، أنا وهي. لم يتأخّر بي الوقت حتى اتّضح لي وجهها في ذلك الضوء المتلاعب الآتي من الشاشة. كانت قد أسندت ظهرها إلى الحائط المقابل، تاركة بيني وبينها مسافة لا تزيد كثيراً عن متر واحد، مديرة وجهها إلى الفيلم لكن جسمها متّجه إليّ. كان ضوء الفيلم الفضّي يلوّن جانب وجهها، موضحاً إيّاه مرّة ومعتماً إيّاه مرّة. ولم تعد إلى ما قالته عن انشغالهم، أو انشغالها، بي. ولا كلمة واحدة. ولم تطل بنا الحال هكذا، هي مسندة كتفيها إلى الحائط ومائلة بجسمها إليّ، وأنا واقف قبالتها لا أفعل شيئاً ولا أقول شيئاً، إذ سريعاً ما انضمّ إلينا، نحن الاثنين، ثالث هو عبد القادر الذي قال لي، من فور ما وقع نظره عليّ: لماذا تركت الفيلم؟

صرنا ثلاثة واقفين هناك، في المدخل الضيّق وراء الستارة. عبد القادر وقف في الوسط غير مستند إلى شيء، وهو أيضاً بدا كأنّه يتابع ما يجري في الفيلم من هناك. لم يتحرّك أحد منّا من مكانه، نحن الثلاثة. وأنا الذي كنت أنتظر أن يعود عبد القادر إلى مقعده، صار يخطر لي، بعد أن ظلّ في مكانه بيننا، أنّه ربما ينتظر أن أعود أنا إلى مقعدي. لكنني، مع ذاك، بقيت حيث أنا، وبقي هو حيث هو. وهي، دلال، لم تبعد وجهها عن الفيلم وبقيت على اتّكائها ذاته، مائلة بجسمها إليّ، مثلما كانت. لكنّ الوقت صار يمرّ ثقيلاً. ولا أعرف لماذا رحت أشعر بأنّني أعاند في بقائي واقفاً حيث أنا، وأنّني أنا من يجب عليه أن ينهي هذا الحرج الذي تثقل وطأته مع كلّ لحظة تمرّ. ثمّ رحت أتساءل كيف سأبدو في نظرها، إن عاندت وبقيت حيث أنا، إن كانت تنتظر اللحظة التي أغادر فيها. ولم أكن أدير عينيّ إلى عبد القادر، لكنّني كنت كما لو أنّني أراه، ناظراً إليّ مرّة بعد مرّة، جاعلاً عينيه مرتفعتين عني.

كان يمكنني أن أعود إلى الممرّ الواسع، هناك حيث كنت أمرّر الوقت، فأكون قد تركتهما معاً لكن من دون أن أغيب عنهما، إذ سيظلّان مترقّبين عودتي. كان يمكنني أن أفعل ذلك، لكنّه لم يخطر لي إلّا وأنا أسير متباطئاً، متحسّساً موقع قدميّ، باتجاه مقعدي. كنت أستطيع ألا أفعل، أن أبقى حيث أنا ما داما قد جاءا من بعدي. وهي لن ترى في بقائي هناك تطفّلاً ما دمت لم أتبع أحداً. لكنني مع ذلك رحت أفكّر ماذا لو خطر لها أنّي تركتها مع عبد القادر، أو تركتها لعبد القادر الذي تبعها بعد أن لحقت هي بي منشغلاً بالها عليّ.

* * *

السينما ليست الفيلم هذه المرّة، ليست زبيدة ثروت وعبد الحليم حافظ، بل ذلك المدخل الذي تتدلّى منه ستارة المخمل السميكة. كانت الأمور تسير هيّنة في غرام الممثّلين عبد الحليم حافظ وزبيدة ثروت، أما أنا فلم أعرف لماذا بقيا هناك معاً، هي وعبد القادر؟ وماذا كانا يفعلان؟ ربما أخطأتُ، أو استعجلت، بتخليّ وانسحابي، تاركاً عبد القادر يفوز عليّ. لكنّني لا أستطيع أن أكون مثله. لا أستطيع أن أظلّ واقفاً، أن أستمرّ في الوقوف حتى يخرج من أريده أن يخرج، هكذا من دون ارتباك ولا حرج. الغرام لا يكون هكذا، ومن كان مثل عبد القادر لا يمكنه أن يُحَبّ. لا يمكن أن يحبّه أحد. في الأفلام كلّها، هل أحببنا أحداً مثله؟

لا أعرف إن كانا قد اتفقا، وهما بعد جالسين على مقعديهما، على أن ينفردا معاً هناك. كذلك لا أعرف إن كانا قد اتّفقا على شيء وهما منفردان في ذلك المدخل. لكن ذلك لا يهمّ، فقد انقضى وقت كثير على ذلك. بل كان قد انقضى وقت كثير حتى حين ذهبت إلى الأردن سنة ١٩٧٣ مع وائل ونبيه. طيلة تلك السنوات الكثيرة لم يكن يهمّني أن أتذكّر بقاءهما معاً في ذلك المدخل الضيّق. بل إنّني في مرّات كثيرة كنت

أحذفه من المشهد ذاك، مثلما يفعل السياسيون الذين يتلاعبون بالصور، فأراها هناك وحدها في العتمة التي لا يلوّنها إلا ضوء وجهها المائل إلى جهة الفيلم.

* * *

كان الصحافيّان الإنكليزيان اللذان أضافهما طلال إلى الموظّفين يعرفان عن الصحافة العربية أكثر ممّا ظننت. أحدهما كان مستشاراً لإحدى المجلات التي تصدر في الخليج والآخر، بيتر، كان مراسلاً للمجلّة نفسها ينقل أوضاع الجاليات العربية في أوروبا. في اجتماعنا الأوّل معهما، كنت كأنّني أنتظر أن تنتهي تلك القشرة التي يجولان فيها، ذاكريْن معلومات عمّا سمّياه "أزمة القراءة في بلدانكم". لكنّهما صمدا هناك، عند ما بقيت افترضه تلك القشرة، وإن كنت أجد أنّ ما يكشفان عنه لا يعدو أن يكون إضافات لا معنى لها لما يتداول به الصحافيّون هنا. وفي كلّ ما كانا يأتيان على ذكره، كان هناك حيّز للأرقام والنسب المئويّة يذكرانها، أو يذكرها أحدهما، فتبدو في كلّ مرّة مفاجئة وفائضة عمّا كنا نظن. كان طلال مصغياً إلى كلّ ما يقولانه، إذ كانا يجولان في الميدان الأقرب إلى ما يحبّ الخوض فيه. بل كان ينقّل نظراته بيننا، موقفاً إيّاها عندي، ليرى كيف يقع ما يقولانه عليّ.

كان الرجلان يكثران من ذكر الأرقام ونِسَبها وكذلك الأمثلة عن تجارب توزيع فشلت وأخرى، جرى اعتماد الطرق المستحدثة فيها، حقّقت نجاحاً. وإذ جاءا على ذكر المستكتبين المحتملين، قال بيتر إنّ شركة إحصاء متعاونة مع مجلّته لديها قائمة يزيد عدد الأسماء فيها على ٨٠٠ مستكتب محتمل، غالبيّتهم من العرب. مرّة أخرى رأيت طلال ناظراً إليّ، كأنّه يتذكّر عدد المستكتبين القليل الذي اقترحت التعاون معهم وأرسلوا لنا المقالات التي لم يحظ أكثرها برضاه.

لكنّني، معانداً ربما، بقيت مصرّاً على أنّ الرجلين المتكلمين ببراعة ما زالا لم يبرحا تلك القشرة التي سيبين ما تحتها هشاً وخاوياً. كان عرضهما أشبه بتقييم يمكن

نشره في جريدة، بل في مجلّة متخصّصة، لكن يصعب العمل بحسبه. وحين سألني طلال، منتظراً مني أن أستخلص ممّا سمعته ما قد يفيدنا في المجلة، أجبت بأنّ هذا مفيد أن نعرفه لكنه لا يكفي، إذ كيف يمكن أن نضع خطّة مسبقة لإصدار مجلّة ونكتفي بنسخها في أثناء الإعداد لكلّ عدد جديد. بل إنّني ذهبت إلى أبعد في التقليل ممّا قدّمه الرجلان بقولي إنّنا، أمام كلّ عدد جديد، ينبغي أن نتجنّب الخطط المعدّة سلفاً وأن نبدأ متسائلين ماذا سنفعل هذه المرّة.

- بتقصد إنّو نضل نحتار، متل ما بقينا عمنعمل من سنة لليوم؟

قال طلال، مخاطباً إيّاي وحدي، ومبدياً حنقاً كان يتحفّظ عن إظهاره.

- هيك تعوّدنا نشتغل... مع كلّ عدد جديد كان لازم نخترع شي. إنّك تصدر مجلّة شي تاني غير إنّك ترجع تعبّي الاستمارة ذاتها كلّ شهر، قلت مخاطباً إيّاه وحده، وأيضاً باللغة التي لا يفهمها الإنكليزيان.

وهو، مستمرّاً في تحييد الإنكليزيين، قال لي بنبرة الحنق التي لم يتمكّن من تغييرها، إنّ هذا كان ينجح في الماضي، ذاك الذي ولّى إلى غير رجعة بحسب ما دلّت حركة يده التي أبقت الماضي هناك في الخلف، متروكاً وراء ظهره.

هذه المرّة لم يعرّف كبر العمر بكلمة أستاذ التي كنت خُصصت بها، بل بحركة اليد تلك التي ترجعني إلى الزمن الذي ينبغي تخطّيه.

اكتفيت من الردّ بأن أقول للإنكليزيّين إنّي سأغادر. لم ألتفت إلى طلال فيما أنا أقوم عن مقعدي، آخذاً عن الطاولة القلم والورقة التي كنت دوّنت عليها بعض ما كان قاله الرجلان. وهو، بمبادرة اعتذار متعجّل عمّا قاله، التفت إليّ ليقول لي، بلهجة المتعجّب، إن الاجتماع لم ينته بعد.

لكنّي أكملت طريقي مسرعاً إلى الخارج.

* * *

لم أخط خطوة واحدة بعد نحو ما عاهدت نفسي على القيام به. ما زلت حيث كنت، مراوحاً في مكاني، كما ما زلت أفعل منذ أن وقفت أنا وجابر، هناك في أعلى الدرجات الثماني والتسعين، وهو يشير بإصبعه إلى واحدة من النوافذ المتجاورة الكثيرة ويقول لي: ”هون... هون على الشبّاك... مش شايف، أعمى أنت؟“. لم أخطُ خطوة واحدة إلى الأمام. لم أذهب إلى أبعد من قريبها، ذاك الشاب النحيل الطويل، وذلك البيانو الذي لم أستطع حتى أن أطيل النظر إليه. لم يكن ينبغي لي أن أُساق إلى كلّ ما تحاول سعاد إقناعي به. تلك الوعود الكثيرة، وذلك الانتظار المتأمّل الذي أعقبها، لم تصل بي إلّا إلى أن أتلهّى بما حملته في ذاكرتي طوال هذه السنوات. كنت، كلّما أشركت سعاد، أو أشركتني هي في البحث عن دلال، كأنّني أضع ما أتذكّره على طاولة في الوسط بيني وبينها. كأنني أقاسمها ما ينبغي أن يكون لي وحدي. أن يظلّ لي وحدي.

ما ينبغي عليّ فعله هو أن أُقفل على ما بقي من تلك الذكريات سليماً لم يُمسّ. ذاك من أجل ألّا أبدّده، أو أبدّد قوّته بتحويله إلى كلام أتداوله مع سواي. عليّ أن أفعل شيئاً، أن أفعله بنفسي، وأن أكون فيه وحدي. وعليّ أن أسرع أيضاً، إذ ربما يكون ما أتذكّره، أو ما زلت أتذكّره، قابلاً للضمور من تلقائه. لم يعد وقوفها هناك، في الملعب الذي أخذنا أستاذ الرياضة إليه، قريباً إليّ كما كان، فقد بتّ أحتاج إلى أن أبذل قدراً من التركيز حتى أرى عينيها تنظران إليّ، أن أرى عينيها هي، عينيها نفسيهما غير ملتبستين بنظرات وعيون تحاول مشابهتهما أو أن تحلّا محلّهما. ولم يعد إصبعها ذاك، إبهامها الذي كانت تضغط به الكبسة على لوح الصفّ، لم يعد في وضوحه ذاته. أنت ستضحك يا وائل، بل ستنفجر ضحكاً إن قلت لك إنني أكاد أنسى كيف هو إبهامها، ذاك الذي ظننت أنّه انطبع في ذهني من أكثر من أربعين سنة. إبهامها؟

ستقول لي، مبالغاً في إبداء التعجّب، إذ، فضلاً عمّا تراه من طول الزمن، سيزّودك ذكري لإبهامها بمادة للسخرية تكفي لأكثر من شهرين.

أعرف أنّ الطاقة التي تحفّزني باتت أقلّ ممّا كانت، وهذا ما سيسجّله وائل في خانته. ما كنت أجمّعه في ذاكرتي ليكون زادي في ما سيأتي من الأيام، لأعيشه مرة ثانية، بل مرّات أخرى بعد أن أعجز عن عيش سواه، ها هو يبدأ بالضمور. ذلك ما لن نعرفه إلا متأخرين يا وائل، حين يكون قد بدأ الاستعداد لاستعمال ما نتذكّره، معوّضين به عن ضآلة العيش. الذاكرة مثلها مثل الحواس، مثل النظر والسمع، تضعف مثلهما فيصير ما نتذكّره غائماً، وقلّما يستجيب لنا حين نحثّه على أن يصير أوضح.

سيكون عليّ أن أكتفي مثلاً بما يظهر لي من دلال، أن أقبل بما يخطر لي، بأوّل ما يخطر لي، هكذا من دون أن أبذل ذلك التركيز الذي يقوم به ضعيف البصر ليصل إلى رؤية صحيحة. سأقول هذه هي، رغم معرفتي بأنّها ليست تماماً هي، ليست هاتان عينيها تماماً، ليس هذ إبهامها، وتلك ليست كنزتها ذات الأزرار. حتى تنورتها الإسكتلندية وهي واقفة عند مدخل الطريق الضيّقة المؤدّية إلى بيتها، هناك حين راح جابر يقول لي: ”ولك إمشي... وقفت لك... وقفت لتحكيك“، حتى تنورتها هذه لن تعود كما رأيتها بعينيّ.

* * *

- عندي مفاجأة، مفاجأة عن جد هالمرّة.

- شو هالمرّة جبتيها هي؟

- لأ مش هيّ، صورتها، عندي صورة إلها، هاي هي معي وعمبتفرّج عليها.

وضعت في نبرتها كلّ ما يلزم لكي نعود أنا وهي إلى ما كنا عليه قبل دعوتي لها في ذاك المطعم. هي مثلي ربما، ترى في ما مررنا به شيئاً مخجلاً. هكذا تحوّل

تذكّري للفشل الذي كنّا فيه، وللمهمّة الصعبة، بل المستحيلة، لأن يستخلص واحدنا من الآخر شخصاً آخر غير الذي يعرفه.

- إي، وحلوة؟ قاصداً تلك التي في الصورة، تلك التي لن تكون دلال نفسها في الغالب.

- لازم تشوفها.

كنت في حاجة إلى ذلك، إلى أن أعود إلى رؤيتها ثانية. ولم يكن الاشتياق وراء حاجتي تلك، بل أن تساعدني الصورة على أن أعيد ترميم ما أضعفته الذاكرة وغيّرت فيه.

- مين قلّك إنو هيدي هي دلال؟

- ناس جابوها من هونيك، من جنين، ناس بيعرفوها؟

- ...

- هيئتك مش متحمّس!

- مبلى، بس حاسس إنّو مش رح تكون هيّ.

ذاك لأنّني، حتى وإن كنت أبحث عنها، أشعر بأن أيّ شيء يدل على أنها موجودة، أيّ شيء حقيقي، صعب ومستحيل الحصول.

- طيب تعا شوفها يا أخي.

"يا أخي" هذه علامة ثانية على رجوعها إلى ما كنا فيه قبل يوم فشلنا.

لكنّها مع ذلك كانت تريدني أن أجيء إلى بيتها، إلى "سهرة متل السهرات اللي كنت أعملها... ولو نسيت؟".

- بشوف... خليني شوف شو عندي...

ليس هي سعاد، بل السهرة في بيتها. السهرة ذاتها التي لن تحصل فيها نكتة واحدة تستدعي الضحك، ولن يشاهد فيها وجه يُحبّ. ثمّ ذلك اللعب الذي أجد نفسي مدفوعاً

إلى تأديته.

- إذا ما بدّك تسهر خلّينا بالصورة، بدّك نتلاقى بشي قهوة؟ بدّك إبعتها مع حدا؟ بدّك بالبريد؟

- قدّيش عمرها؟

- مين؟

- اللي بالصورة.

- يعني كبيرة بس حلوة.

- كبيرة كيف؟

تلك واحدة من الخيبات التي تدفع إلى الإحساس بالهبوط، نزولاً إلى الأرض. كان ذلك خطئي، وأنا أدركت على الفور أنّه خطئي، إذ كان عليّ أن أحتمل أن الصورة، إن كانت صحيحة، يمكنها أن تكون قد أخذت في أيّ عمر. كان خطأً ما كنت أكذّب الصورة بشأنه. كنت أقول لسعاد إنّها غير صحيحة لكن، في أي حال، كان يمكنها أن تكون لواحدة في العمر الذي عرفت دلال فيه.

- كبيرة كيف؟ سألت مرّة أخرى.

- متل اللي بيكون عمرهن خمسين مثلاً، بس من النوع اللي بيبيّنو أصغر.

مستمرّاً في التوهّم وأغلاط الفهم، خطر لي مشهد البيانو ذاك، البيانو الكاذب الذي نفرت منه من لحظة ما وقعت عليه عيناي.

- مش رح شوفها، قلت لسعاد بنبرة جعلتها تصمت لوقت أقفلت خطّ التلفون من بعده.

* * *

غافلتني قدماي هذه المرّة. كنت، منذ أن أوقعت نفسي في ذلك الحرج مع البنات الثلاث، قد غيّرت طريقي سالكاً بين مربّعات لا توصلني إليهنّ. هذه المرّة غافلتني

قدماي، إذ ساقتاني في الطريق التي كانتا قد اعتادتاها. فجأة وجدتني على الدرج الكهربائيّ نفسه، وهو نازل بي إلى تلك الساحة الواسعة. كان يمكنني أن أنعطف منذ أن تحطّ قدماي على الأرض، ذاهباً في الاتّجاه المعاكس لمكان جلوسهنّ. لكن لسبب ما، ربما كان رغبتي في أن أختبر كيف سيتصرّفن عندما يشاهدنني، وجدتني مكملاً الطريق ذاتها، لكن وأنا منحرف قليلاً عن خطّ سيري المعتاد، كأنما من أجل أن أبدو مبتعداً عنهنّ.

وهنّ كنّ هناك، في مكانهنّ ذاته، جالسات على عادتهنّ بإدارة ظهورهنّ إلى المارّة من خلفهنّ. ومن نظرة ثانية مني إليهنّ، سريعة ومختلسة، فكّرت أنّهنّ لن يرينني، إذ بدَوْن صامتات تنظر كلّ منهنّ في الاتّجاه الذي يتيحه جلوسها. وهنّ لا بدّ بقين هكذا على جلوسهنّ ذاته فيما رحت أنا أتقدّم باتجاه طريق السيارات، مقترباً من نهاية الساحة الواسعة. وهناك، عند الحافة التي تبدأ منها الدرجات الثلاث، خطر لي أن ألقي عليهنّ النظرة الأخيرة، تلك التي لن تكون سريعة وخاطفة، إذ إنّني بتّ وراء ظهورهن وهنّ سيحتجن إلى أن يستدرن في جلوسهنّ استدارة كاملة حتى يشاهدنني. بل إنّني أنا الذي استدرت، نصف استدارة ربما، لأراهنّ ، بعد أن أرسلت نظري إليهنّ، هنّ الثلاث، وقد أدرن وجوههنّ إليّ.

لم أعرف ماذا أفعل، فكّرت للحظة في أن ألقي عليهنّ تحيّة متعجّلة، لا تزيد على إيماءة من الرأس أُسرع بعدها إلى إنزال قدمي إلى أولى الدرجات الثلاث. وربما كنت قد باشرت ذلك فعلاً حين لمحت تلك التي تتولّى الكلام عنهنّ وهي تقوم من مكانها، وتقف للحظة بقيت أنا فيها على وقوفي نفسه، ثمّ بدأتْ تسير متّجهة إليّ فيما رفيقتاها اللتان باتتا خلفها قد وقفتا أيضاً، لكن لتنظرا إلى ما سيجري.

ولم أنتظر وصولها، بل رحت أتقدّم نحوها بدوري ملاقياً إياها، ولأصير بذلك قريباً من رفيقتيها. ثمّ مدّت يدها إليّ لتصافحني وهي بعد على بعد مسافة مني. وحين بلغت

يدها يدي التي كنت قد مددتها أيضاً، أظهر وجهها ابتسامة عريضة تحوّل بعدها إلى التساؤل: أين كنت؟

ثم اقتربنا أنا وهي إلى حيث تقف رفيقتاها. ابتسمتا لي هما أيضاً، ثمّ مدّت كلّ منهما يدها لتصافحني. ومثلما فعلت هي، سألتاني، بحركات من يديهما هذه المرّة، أين كنت؟ ثم تركتا لها، هي الباقية بجانبي، أن تعدّ على أصابعها أيام غيابي. ثلاثة أيام، بحسب ما ارتفعت الأصابع، بل أربعة جرى تأكيدها بقولها: فور، فور دايز.

كنّ ينتظرنني. فكّرت أنّهنّ لا بدّ تداولن بالحرج الذي أوقعنني فيه ذلك اليوم، وأنّهن لا بدّ تهيّأن لملاقاتي هكذا في اليوم الذي تلى ذهابي من بينهنّ هارباً غير ملتفت إليهنّ.

وقد عرفت أنّ ترحيبهنّ بي، بل احتفالهنّ بي، لن يطول ما دمت لم أجد شيئاً أقوله لهنّ. وهنّ أيضاً لن يعرفن ماذا سيفعلن بعد ترحيبهنّ ذاك. لن يدعونني إلى الجلوس على ذلك المقعد، إذ يفكّرن أنّه لا يليق بي، كما أنّ منظري سيكون مضحكاً إن فعلت، إذ سيبقين واقفات أمامي فيما أكون جالساً وحدي. لكن، مع ذلك، لا ينبغي أن ينتهي لقاؤنا بهذه السرعة. بذلك يكون كأنّه لم يحصل إذا لم يقدّمني معهنّ خطوة إلى الأمام. لا بدّ إذن من شيء أقوله، ليس أيّ شيء، ليس مثل إنني كنت مشغولاً في الأيام الماضية، ليس مثل إنّني كنت مريضاً ومتوعّكاً، بل أن يكون:

- آي وانت فيري ماتش تو سي يو، بات آي ثوت يو آر أنغري أُف مي...

ابتسمت هي، الواقفة ما زالت بقربي، ثمّ بخطوة منها مماثلة، أمسكت يدي تاركة إياي للحظات أحسّ بملمسها غير الطريّ.

لا يتيح المكان الذي نحن فيه أكثر من ذلك. لأمر ما لا يصلح ذلك المقعد لا لجلوسي وحدي ولا لجلوسي معهنّ. ثمّ إنّ تلك الساحة، وإن كان لا يعبرها إلا قليلون،

يوسع اتساعها من انكشافنا، فنبدو مرئيين حتى من آخرها، هناك حيث قلّما يظهر أحد.

- لاست تايم وي برينغ كايك فور يو.

كايك من أجلي. كان ذلك في اليوم التالي لمغادرتي، على الأرجح. لم أعرف إن كان عليّ أن أعتذر لهنّ أو أشكرهنّ. ربما كانت تلك الابتسامة الودودة كافية لقول ذلك معاً، إلا أنني أعقبتها بوضع يدي على كتف مجاورتي لثوان قليلة، لكن فيما أنا أنظر إلى رفيقتيها مبتسماً وشاكراً:

- آي ويل كام تومورو، قلت موضحاً ذلك ومؤكّداً إياه بحركة من يدي.

* * *

حين وصلت كان إميل لا يزال وحده في المكتب. ومن فور ما جلست قبالته على الطرف الآخر من مكتبه سألني ماذا جرى بيني وبين طلال في اجتماعنا مع الإنكليزيَّين. قال لي إنّهما غادرا حين سألته عنهما. ثم، بطريقة كلامه الجديدة التي أدخلت إليها تعابير من واقع شغله مع صحافيّين، قال لي إنه متأكّد من أنهما سيسهمان في بلبلة إضافية. وأنا باللغة التي يرغب في تعلّم المزيد منها قلت له إنّ حالنا هنا تشبه حال رجل في كتاب اسمه الطاعون أحبّ أن يؤلّف كتاباً فقضى الوقت الذي تجري فيه أحداث الكتاب كلّه مشتغلاً بتغيير الجملة الأولى لتكون كما يحبّها أن تكون.

- لكنّي مش رح أعمل مثله يا إميل، مش رح شارك بتأليف الجملة مرّة بعد مرّة.

- بدّك تترك؟

- بدّي أترك.

- طيّب في شغل، دبّرت شغل؟

- مش تمام، بس مفروض الواحد يلاقي شي.

ما كنت أرغب فيه حقاً هو أن أجد مكان عمل آخر قبل أن أغادر. لذلك تركت إميل يقترح عليّ أن أفكّر بما يكفي، وأن أبذل على الأقلّ محاولة مع طلال. وهو حاول أن يُسرع في ذلك بأن سألني إن كنت أرغب في أن يوصلني به على السكايب، بل إنّه أراني، بحركة انكباب على الكومبيوتر أمامه، أنّه يستطيع أن يفعل ذلك الآن.

- لا... لا يا إميل، ما بحسّ إنّو الحكي هيك رح يفيد. يمكن أحسن إنّك تحاكيه بعد ما أترك. على كلّ حال يمكن هوي كمان عميفكّر متل ما أنا عمفكّر، يعني، إنّو يجرّب الشغل مع حدن تاني.

لم أُطل بقائي مع إميل، ولم أقم من عنده إلا لأخرج من مكتب المجلة كلّه، مظهراً هكذا نيّتي الحقيقية في التوقّف عن الشغل. وفيما أنا أقفل بوابة الحديد في الأسفل، شعرت بأنّه كان مجازفة ذاك الذي قمت به في الأعلى، لكنّني شاغلت نفسي بالقول إنّه كان عليّ أن أفعل ذلك، مستبقاً ربما صدوره عن غيري.

وكما يحدث لنا كلّما هممنا بمغادرة مكان عرفناه، رأيتني أشعر بالفقد لما لم أحسبني منتمياً إليه مرّة. ليس المكتب حيث تركت إميل جالساً يعمل وحده، بل الطريق التي، على الرغم من أنّها مكشوفة من الأعلى، ومفتوحة من جهتي الدخول والخروج، تظلّ عابقة برائحة العطر المنبعث من المحالّ على جانبيها. ليس فقط إني لن أعود إلى العمل، بل إنني سأخسر فرصة أن أجيء إلى هنا، ليس إلى هذه الطريق الصغيرة وحدها، بل إلى المدينة الجديدة كلّها، ما عرفته منها وما لم أعرفه بعد.

إنّه إياب مبكّر هذا النهار. في الأيام التي سبقت كنت أقضي ثلاث ساعات أو أربع في المكتب. سيكون مختلفاً ما سأمرّ به اليوم. سأختبر كيف تكون حال البنات الثلاث بعد نصف ساعة من مروري الصباحيّ. لن أسلك الطريق نفسها، إذ الأفضل لي أن ألقي نظرة عليهن من بعد، من هناك، من تلك الشرفة المطلّة عليهنّ من الأعلى. لن يخطر لهنّ أن ينظرن إلى حيث أكون، لا شيء يدعوهنّ إلى ذلك. هناك، بعد أن

وصلت، وقفت مشرفاً على الساحة تحتي، الساحة كلّها، ممتدّة حتى إلى أبنية السينما الضخمة التي يبنونها في آخرها. كنّ ما زلن هناك، جالسات على عادتهنّ. ألم تأت المرأة صاحبة المحلّ بعد؟ هل يبقَين هكذا منتظرات كلّ يوم؟ للحظة فكّرت في أن أفعل شيئاً ألفت به انتباههنّ إليّ. أن ألوّح بيدي مثلاً، فيما يكون نظر واحدة منهنّ متّجهاً إلى حيث أقف. ستقول لرفيقتيها، هذا هو، إنّه هو، فيلتفت وجهاهما إليّ، الوجوه الثلاثة تكون ملتفتة إليّ. من حيث أقف، مظهراً لهنّ نصفي الأعلى، رحت أتخيّل نفسي ملوّحاً لهنّ مرّة ثانية، ثم تلويحة أخرى، مودّعة، قبل أن أستدير عن الدرابزين وأكمل طريقي عائداً إلى المرأب حيث سيارتي.

* * *

في المقهى ذاته، وعلى كرسيَّي طاولتنا ذاتها، قلت لوائل، كأنني أبشّره بشيء كان ينتظر حصوله، إنّني شعرت بالأسف لاحتمال أن أغادر هذا المكان الذي لم أحبّه. ليس فقط تلك الطريق التي هبّ عطرها عليّ فيما أنا أخرج مغلقاً خلفي بوّابة الحديد، بل هذا المقهى الذي نجلس فيه الآن. مرّة أخرى، فيما أنا أتّجه صوب الدرج الموصل إلى الطابق المكشوف في الأعلى، دخلتْ تلك المرأة الممسكة بيد صبيّها الصغير وهي تقول له إنّه هنا سيجد شيئاً يحبّه. وأنا، من على الدرجات، التفتّ إلى الواجهة الطويلة التي صُفّت تحت زجاجها قطع الحلوى. فكّرت في أنّ هذا سيعجب الصبي، بل إنّني أحببت أن يعجبه إلى حدّ أن خطر لي أن أظلّ واقفاً هنا على الدرجات، مراقباً ما سيحدث. وإذ قدّرت أنّ وقوفي هناك ناظراً إلى المرأة وابنها سيبديني متطفّلاً، بل مثيراً للشبهة ربما، بدأت النزول إلى الأسفل، حيث يمكنني أن أكون حاضراً هناك، ومتابعاً ما سيجري، محتجّاً بأنّي نسيت أن أطلب القطع التي ستجلب لي إلى الأعلى. بالكاد نظرتْ إليّ المرأة، لكن ليس من دون أن تسائل نفسها، كما حدستُ، عن نزولي الذي أعقب دخولها هي والصبيّ. لا أكثر من التفاتة عابرة عادت

بعدها لتدني صغيرها من الواجهة. وقد برّر البائع الشاب وقوفي منتظراً بأن ابتسم لي ثم أفهمني بحركة من رأسه أنّه سيصير معي بعد أن يلبّي طلب المرأة.

ما رغبت في أن أراه حقيقة ليس فقط الصبي وهو يتردّد في اختيار ما يحبّه، بل المرأة أيضاً. بل كلاهما معاً على الأصحّ وقد دخلا إلى المحلّ الذي صعب عليّ أن أتخيّل، في زيارتي السابقة له، كيف هم زبائنه. وقد تهيّأتْ لي صور عنهم نسختها، أو استنسختها، من منظر القطع ومن الألوان التي لم أكن أعرف من قبل أنّ من الممكن أن تكون لأشياء تؤكل.

وقد طال تردّد الصبيّ محرّكاً إصبع يده بالرفض بعدما كان قد أشار بالإصبع ذاته إلى واحدة من القطع. وربما أغاظ ذلك المرأة، ليس بسبب تأخّر الصبي، بل لما يستدعيه ذلك من وقوفي خلفها طوال الوقت، ناظراً إلى ما يجري بينها وبين الصبيّ.

حين أطلّ وائل داخلاً من الباب، شعرت كما لو أنّه جاء في الوقت المناسب. كان غيظ المرأة قد بلغ حدّ أن أرسلت نحوي نظرة أخرى، سريعة خاطفة مثل سابقتها، لكنّها لم تخلُ هذه المرّة من شعور بالسخط.

- شو... عبالك الكاتو، سألني وائل.

كنت قد اكتفيت ممّا أحببت أن أشاهده. قلت له مجاملاً إن كان هو أيضاً يحبّ أن نطلب كاتو، لكنّه، بعد أن ألقى نظرة نحو المرأة والصبي قال لي إنّه سيفكر في ذلك في الأعلى. وإذ بدأنا صعودنا على الدرجات سألني، بصوت خافت وممازح إن كنت وقفت هناك لأبصبص على المرأة. ضحكت، ثمّ أجبته فيما نحن نطلّ على الترّاس المكشوف، الخالي من زبائنه، إني كنت أبصبص على المرأة وعلى الصبيّ أيضاً.

* * *

وائل أعجبه أن أعلن له ما بتّ أشعر به حيال المكان الذي لم أكن أحبّه. لكنّه، عائداً إلى المزاح، قال لي إنّني جئت متأخّراً كعادتي. لا نتّفق، أنا وهو، على شيء. أشار

بيده إلى المطعم المجاور، ذاك الذي كان موشكاً على الإقفال، وقال لي إنّه أقفل فعلاً. كان النبات المعرّش، والمزهر، الذي يزيّن حائطه قد يبس وبدا لي كتلة ثقيلة ينبغي إزالتها، كلّها معاً، ليظهر الحائط الذي تحتها. ''وهذا أيضاً سيقفل''، أضاف مشيراً إلى المقهى حيث نجلس.

- البلد ما قدر يتحمّلهن، قال، قاصداً ليس المطعم والمقهى فقط بل مشروع المدينة الجديدة كلّه. كان يطلق اسم ''مشروع'' على ما يقرب من أن يكون نصف مدينة. وهو، إذ يعدّد الانتكاسات التي تصيبه هنا وهناك. لا يخفي غضبه من ''فشلهم''، فيبدو بذلك كأنّه يدين رجال سياسة عجزوا عن تحقيق ما خطّطوا له ووعدوا به.

- لكن ما حدا بيقدر يتنبّأ عن مدينة إذا كانت رح تظبط أو لا. إنت بتقدر تعمل مشروع صغير وتقول إنّو أكيد رح ينجح؟

- على كلّ حال خبّرني هلّق كيف صار هالمحل يعجبك؟

- بعد ما صرت على وشك إنّي إتركو. يعني حسّيت إنّو بسبب شغلي هون عمكون مضطّر إنّي إتكيّف، بقصد إتجدّد يا وائل. هلّق كإنّي حاسس إنّي انطردت، إنّو حدا طردني وقللي رجاع لهونيك، لمحلّ ما كنت. إنو ما فيك يكون عمرك عميقرّب من الستين وترجع تبدا شي عن جديد. لازم يكون عمري متل عمر هالمرا اللي شفتني عمبصبص عليها تحت، وإذا بعمر ابنها بيكون أحسن.

- على كلّ حال إذا كان على بالك ترجع جديد فيك تضلّك تجي لهون، بس تكون زبون مش موظّف. يعني تشتري شي قميص من شي محلّ من هالمحلّات، تجي تشرب قهوي بشي قهوة...

- هاي القهوة... ما راح تسكّر!

- إذا مش هاي... في قهاوي كتير غيرها فيك تروح عليها.

- طيّب إنت شو عمتفكّر تعمل؟

- بخصوص شو؟

- ما بعرف، بس منشان ما نضل نحكي عن شو أنا لازم أعمل.

لم أكن بالطبع أنتظر جواباً على تعليقي الأخير هذا. كان ينبغي أن يمرّ هكذا من أجل أن يفكّر في وقعه كلّ منا بمفرده. لكن وائل وجد شيئاً يقوله لكي يمرّ مروراً هيّناً.

- الهيئة ما عدنا لوحدنا...

كان النادل، القليل الظهور في العادة، يقف خلف شاب وفتاة بدا أنّهما يقصدان المقهى للمرّة الأولى.

- رح يعجبهن إنّو ما في حدا غيرنا أنا وإنت، قال وائل مفترضا أنّهما جاءا إلى هنا لأنّهما لم يجدا مكاناً يختليان فيه.

وهذا كان مقصدهما فعلاً، إذ فيما هما يقلّبان النظر بين الطاولات الخالية أمامهما، كانا كأنّهما يقيسان بُعد كلّ منها عنّا.

- وين ما قعدوا رح يضلوا يحسّوا إنّهن تحت رحمتنا، قلت لوائل، خصوصي إنّو ما في حدا عالسطوح حولهن.

ولم يتأخّرا في القيام بما جاءا لأجله. من لحظة ما أدار النادل ظهره حاملاً الورقة التي سجّل عليها طلبهما سارع الشاب إلى تغيير مكانه، فلم يعد مواجهاً الفتاة، بهذا كان قد أولانا ظهره حاجباً نفسه عن نظراتنا.

وأنا لكي أجعله مطمئناً إلى أنّنا لن نزعجه بالتلصّص عليه، انتقلت إلى المقعد الذي يبديني أنا أيضاً مولياً له ظهري، مدركاً أنّ الفتاة ستقول له، فيما أنا أقوم بذلك الانتقال، إنّني غيّرت مكاني أنا أيضاً.

- لولا إنّا هون، هيدا أحسن محلّ ممكن يقعدو فيه، قال وائل.

وقد تخيّلت كم أنّ جلوسهما هنا مناسب لهما، إذ لا أحد على السطوح القريبة يخشيانه، على الرغم من أنّهما منكشفين لا يخبّئهما شيء.

- واللي منيح كمان إنّو هيدا الغرسون مش رح يكتّر زياراتو إلهن.

- شو رأيك نقوم نفلّ؟ قال وائل، مع أنّه لم يكن قد انقضى على جلوسنا عشرون دقيقة.

- كمّل سيجارتك، أنا نازل شوف الغرسون.

في الأسفل كانت واجهة البرّاد الطويل لا تزال كما هي، كاملة الترتيب. لم أستطع مقاومة رغبتي في أن أسأل الشاب الموظّف الواقف هناك ماذا طلب الصبيّ، كأنما من أجل أن أخمّن ذلك فيما أنا أنظر إلى القطع الكثيرة الملوّنة. قال لي الشاب إن الصبي أرهق أمّه التي اشترت له الحبات الأربع التي تردّد بينها، ثم حين بدأ بتحديد ما هي القطع الأربع، ظهر وائل نازلاً من الأعلى.

- شو خلص؟

- وين الميتر اللي بدنا نحاسبو؟

- ضهر شويّ، فيني أنا كون محلّو.

وقد أعجب ذلك وائل، مشيراً إلى الأعلى حيث سيحظى من هما هناك بفرصتهما كاملة.

حين بتنا في الخارج سألت وائل إن كانا قد شاهداه وهو خارج.

- قصدك عشان يبلّشو دغري؟

ضحكت، وضحك هو. ثمّ بدأنا مشينا في طريق الرجوع، متمهّلين، خطوة وراء خطوة، كأنما لنعوّض جلوسنا القليل هذه المرّة.

- ليك وائل، إنت بتقول شو بيعملو بها الكاتو اللي ما بينباع معهن؟

- بيوزّعوه على الفقرا، أجاب مطلقاً ضحكة وقف لها عن المشي.

- عن جدّ، شو بيعملو فيهن؟

كنت كأنّني أوقف بذلك الضحك الذي تسببت به إجابته عن الفقراء.

- اسألهن، ليه ما سألت الشبّ؟

- هلّق خطر عبالي.

- عبالك تسأل عن جدّ؟ قال فيما هو يهمّ بأن يستدير، معلناً بذلك أنّه سيرافقني إن رغبت في العودة إلى هناك.

- لا... لا مش مشكلة، فيني أعمل اقتراحات حول الموضوع بيني وبين حالي.

* * *

عندما وصلنا إلى حيث يجب أن نفترق وجدت نفسي راغباً في المشي. كان الصيف يبشّر برحيل آخر أيامه، ولم أشأ أن أفوّت على نفسي استمتاعي بضوء ذلك النهار. قلت لوائل إنّني سأتمشى، مشيراً بيدي إلى الاتّجاه الذي كنا قطعناه. وعلى عادة ما يحدث عند انتهاء لقائنا، حيث نفترق على ضحكة أخيرة، قال لي وائل:

- شو رايح تطارد حبّات الكاتو وين رح يكبّوهن؟

ضحكت، وبقيت أضحك في الخطوات التي تلت. ثمّ، حين وصلت إلى المحالّ التي أعبر من أمام واجهاتها كلّ يوم، رحت أفكّر إلى أيّ منها سأدخل. كنت أمشي بينها متباطئاً، ملقياً نظرة عابرة إلى الواجهات، ثم إلى الداخل. وحين وصلت إلى المحلّ الذي ملأتْ نصف واجهته تلك الصورة الضخمة لفتاة تكشف ابتسامتها العريضة عن سنّيها الأماميين المتباعدين، قلت أدخل إلى هنا.

لم أمكث طويلاً في الداخل. قلت في نفسي إنّها مجرّد تجربة أجعلهن فيها، هن العاملات في المحل، يشاهدنني ولا يظهر عليهنّ أنّهن يجدن دخولي غريباً.

* * *

- الأستاذ جاء يودّعكم، قال إميل للموظّفين الجالسين حول طاولة التحرير الواسعة. كانوا كثيرين ولم تعد تكفيهم أبداً تلك الأمكنة التي تتيحها هندسة الطاولة فأضيفت إليها مقاعد أخرى أفسدت ترتيبها. وكان عليّ، أنا الواقف بجانب إميل مقفلين باب الغرفة، أن أصافحهم واحداً واحداً. لم يبد عليهم أنّهم فوجئوا، ذاك أنهم كانوا مقدّرين ذلك بسبب غيابي واستمرارهم في الشغل من دوني. غير أنّهم قاموا عن مقاعدهم، هكذا بما تفترضه لحظة الوداع وجعلوا يصافحونني، متقدّمين نحوي من حول الطاولة. لم يؤثّر فيّ مشهد الوداع الذي لم تتخلّله كلمة تودّد واحدة. فقط تالا التي شاءت أن تكون الأخيرة بينهم، تقدّمت إليّ والتصقت بي من دون أن ترفق ذلك بابتسامة أو كلمة وداع. وأنا أحطت كتفها بذراعي وقلت لها إنّنا يجب أن نبقى على اتّصال. ثم قام إميل بتلك الحركة التي تعني أنّ أمر الوداع هنا، في غرفة التحرير، قد أُنجز، وهو انتظر خروجي من بابها لكي أتقدّمه عائديْن إلى مكتبه الذي لم تكن قد انقضت أيام كثيرة على تأثيثه.

* * *

سأقوم بذلك وحدي، من دون سعاد، ومن دون جابر الذي كنت برفقته في ذلك اليوم من صيف ١٩٦٥. سأفعل ذلك وحدي، بادئاً من الطريق التي في الأعلى، من حيث راح جابر يقول لي إنها هناك، إنها هناك... أعمى أنت؟... وهو يشدّني من كتفي لكي يكون جسمي كلّه متّجهاً إلى حيث كانت على شبّاكها. وسيكون نزولا عكسياً هذه المرّة، من أعلى الدرج الطويل إلى أسفله، كأنّني أعود إلى ما تأخّرت عنه كلّ تلك السنوات، مطيعاً جابر الذي راح يقول لي أن أنزل، أن أنزل... وإنّها هناك تنتظرني. ها إنّني أنزل، بادئاً من أعلى الدرجات الثماني والتسعين، المجدّدة الآن، والتي يكاد سطحها الأملس يزلق قدميّ.

هذه المرّة ليست مثل سابقاتها، إذ لن أكتفي بمجرّد النزول ناظراً إلى ما يبين لي من الشبابيك، مخمّناً أيّاً منها هو شباكها. لم أفعل شيئاً طيلة تلك السنوات لأعرف أيّها هو، وإلى أين كان يشير إصبع جابر. ربما بسبب كسلي لم أفعل ذلك، أو بسبب خجلي، أو ربما بسبب رغبتي في ألا يُضاف شيء إلى ما كنت أقفلت عليه يوم رجعت خائباً مستحياً وجابر ينهرني طوال طريق العودة إلى بيتينا. هذه المرّة سأذهب إلى هناك، بعد أن أنتهي من نزولي، وسأكمل الطريق إلى الداخل، منعطفاً إليه من حيث وقفت هي لي، مرتدية تلك الثياب التي تبديها مثل البنات الإسكتلنديات.

الداخل الذي لا أعرف ماذا سأجد فيه.

وسأتقدّم بين البيوت التي على الجانبين غير خائف من أن يوقفني أحد هناك ويسألني من أنا، وماذا أفعل هنا. ما كان يخيفني لم يعد يخيفني الآن. ثمّ إنّني لن أجد أحداً هناك، لا على الطريق ولا عند مداخل البيوت التي يمكن أن تكون قد تخلّعت أبوابها وتدلّت من المفصّلات التي تمسكها، مثلما هي الشبابيك، تلك المفتوحة، ليس من أجل أن يندفق الضوء إلى الداخل بل من أجل أن تتنفّس العتمة الراكدة فيه.

لن أجد أحداً، لا على الطريق ولا عند مداخل البيوت. الدكان الذي على يسار الطريق النازلة من الدرج، الدكان الذي كان يشتري منه أهل دلال أغراضهم، أقفل. لم يعد أحد من زبائنه مقيماً في بيته. ها إنّني ولجت إلى الداخل، إلى حيث أكملت دلال سيرها غير فاهمة لماذا وقفت لي، وقفت تنتظرني، ولا أقطع تلك الخطوات السبع، أو التسع، أو العشر، إليها. لا أحد في البيتين الأولّين، المنخفضين كأنهما أقيما لنوم الحرّاس. ولن يعود إليهما أحد ما دام أحد بابيهما المتقابلين قد اهترأ من أسفله، فاتحاً ثغرة يمكن لجسم ولد أن يلج منها إلى الداخل.

لا أحد. يمكنني أن أعرف ذلك من مجرّد المشي على الطريق. حتى قدماي تعرفان ذلك أيضاً، قدماي وحدهما، إذ فيما هما تخطوان على الطريق، لا تحسّان بصدى

الخطوات التي سبقت، بذلك الوطء الذي تخلّفه وراءها الأقدام بعد عبورها. لا أحد يدخل ولا أحد يخرج. كيف يمكن أن تُخلى بيوت وتترك لتعتق هكذا، هنا في الجوار القريب، المنهمك برفع أبنية جديدة بعد أن تكون الجرّافات قد هدمت الأبنية التي كانت في مكانها؟ كيف يكون ذلك وكيف يحصل في الجوار الذي تظلّ تهدر فيه الشاحنات والجبّالات وتدور فوقه الرافعات حاملة أطنان الحجارة إلى الأعلى؟ كأنّ السماسرة والبنّائين وأصحاب العقارات لا يلتفتون إلى هنا. كأنّهم تركوا هذه البيوت لمحبّي التذكّر، المتردّدين أو الخائفين من الدخول.

لا أحد. بلى، ذلك القطّ في الأعلى. القطّ الذي ظهر لي فجأة، واقفاً هناك كأنّه يطلّ عليّ من حافّة برج. لا يتحرّك ولا يموء، لكنه، رغم ذلك، حرص على أن يكون ظهوره كاملاً، ثابتاً في المكان حيث يقف. لا بدّ أن أحداً ما يقيم هنا، في واحد من البيوت التي يُدخَل إليها من ذلك الدرج الخارجي، المتعرّج، الذي وقف القطّ عند واحد من منعطفاته. لا بدّ أن أحداً يقيم هنا، امرأة على الأرجح، امرأة احتاج القطّ إلى أن يستنفر من أجلها كامل غريزة الحماية عنده.

- مرحباً... مرحباً...

رحت أردّد ذلك بصوت الكلام العادي، كأنّي أحاكي أحداً يسمعني. بذلك لا أكون أستفزّ القطّ وأهيّجه، بل أرسل صوتي إلى من حسبته مقيماً هنا، رجلاً كان أو امرأة.

- مرحبا... مرحبا.

لم يجب أحد. ولم يعقب نداءاتي شيء من تلك الأصوات التي تسبق ظهور أحد يكون قد سمعها. ولم يلتفت القطّ إلى أيّ من الجهات حوله لأعرف، بعد التفاته، أنّه إن كان يوجد أحد، فها هو هنا حيث ينظر القطّ.

وقد تركت ذلك الدرج للقطّ يحرسه، وقلت أبدأ الصعود على الدرج الآخر الذي يليه. كانت البيوت تتوزّع هنا حول المخارج المتعرّجة للمصاطب التي تتسع أمام كلّ

من طبقات المبنى، ثم تضيق لتصير مثل كوريدور يوصل إلى أبواب البيوت، واحداً بعد آخر. وكذا هي الحال، لا بدّ، في الطابق الثاني، وكذلك في الطابق الأخير الذي تنتهي عنده تحويلات الدرج. ما كان متاحاً لي أن أفعله هو أن أختار واحداً من الأبواب في واحد من الطوابق، على أن يكون الباب الذي يتيح لي الدخول، كأن يكون اهتراؤه قد باعد بين درفتيه وعطّل قفله. أبدأ من الطابق الثاني، فكّرت، ذلك الذي في الوسط. وإذ خطوت نحو مصطبة الدرج، ألقيت نظرة إلى حيث كان القط. لم يعد هناك. كأنّه اطمأنّ إلى أنني بتّ بعيداً عن المجال الذي يحرسه. ولكي أختبر الباب الأوّل دفعته بيدي. دفعة خفيفة بدا بها رخواً وقابلاً لأن تنفكّ درفتاه إن عاودتُ دفعه بقوة أكبر. لكنّني قبل ذلك رحت أنظر من الشق الطويل، الضيّق، بين الدرفتين. كان الداخل معتماً، لكن كان يمكنني رؤية الفراغ الممتدّ حتى آخر الحجرتين اللتين تتلو إحداهما الأخرى. لا شيء في الداخل يمكن أن يُرى. فقط الجدران والأرضية التي قدّرتُ كم ستكون كثافة الغبار التي تغطّيها. هذا البيت فارغ ولا شيء فيه. الباب الثاني كشف عمّا خلفه، إذ كان اللوح المربّع الذي يزيّن إحدى درفتيه قد سقط، جاعلاً الداخل مكشوفاً، ومضاءً بالنور المتسرّب من الشباك الذي تدلّى متخلّصاً من واحدة من العارضتين اللتين تمسكانه. هنا أيضاً لن أجد شيئاً. هكذا ستكون البيوت الأخرى، فكّرتُ، ثمّ إنها إن كانت كلها فارغة هكذا لا يعود يهمّ أيها كان البيت الذي أبحث عنه. لا يهمّ إن كان هذا بيت دلال، أو إن كان ذاك، في الطابق الذي هنا أو في الطابق الذي في الأعلى.

لم يتركوا شيئاً يدلّ على أنّ حياة كانت لهم هنا. كأنّهم أخلوا في يوم واحد، تاركين للشاحنات أن تخلط أثاثاتهم بعد أن تكون جمّعتها عند المصاطب. لن أتقدّم بعد إلا إلى واحد من الأبواب، وليكن في الطابق العالي الأخير. هناك سأختار الباب الذي يكشف لي عمّا في داخله. لن أدفع باباً بيدي ولن أقف مقرّباً عيني إلى الثقوب الصغيرة. أمرّ

على الكوريدور الطويل مرور زائر وأختار من الأبواب ما يعجبني. لا شيء. هنا أيضاً جمعوا الأثاثات كلّها على المصطبة، خالطين بينها معاً، وهم لن يفردوا لها مواضع تخصّها في الشاحنات.

القطّ الذي أذن لي أن أصعد على تلك الدرجات لم أتركه ينتظر طويلاً. من الطابق الذي في الأعلى نزلت مسرعاً كأنما من أجله. كأنما لأقول له: أرأيت، لم أتأخّر. وقد ألقيت نظرة إلى حيث كان هناك، ثابتاً منتصباً عند الحافة. لم أره. لن يرافق خروجي. ليس هنا ليتأكّد من بلوغي ذلك المدخل الذي وقفت لي دلال في أوّله، متّجهاً منه إلى الدرج الطويل الذي سيوصلني إلى الأعلى.

لم ينتظر اللهاث المنهك بلوغي آخر الدرجات الثماني والتسعين. حتى إنني جلست لأستريح قبل وصولي إلى الأعلى. ثم، كي لا تأخذني راحة الجلوس، وقفت، ورحت أجرّ خطواتي جرّاً فيما أنا أتسلّق الدرجات الباقية. لم يكن ينبغي لي أن أتجاوز ذلك الحدّ الذي بقيت طيلة السنوات واقفاً عنده. كان عليّ أن أكتفي بما أتذكّره. بما أتذكّره فقط. بل بما صرت أبذل جهداً لأعيد تذكّره قويّاً كما كان. هناك أشياء لا ينبغي العبث بها، لا ينبغي تحريكها، رحت أقول متخيّلاً وائل أمامي، مستمعاً إليّ، ومصغياً لي وهو صامت موافق على ما أقوله، بل ومصغياً إليه كما لو أنه من أقوال التجارب والحِكم. كان مقعد سيّارتي مريحاً. لم يكن صعباً وصولي إليه، إذ لم يكن بيني وبينه إلا أن أقطع الشارع إلى جهته الأخرى. هناك على المقعد، فيما أضع مفتاح السيارة في ثقبه، خطر لي أن أنزل لألقي، قبل مغادرتي، نظرة إلى الأسفل، حيث الشبابيك. لن أتأخّر على أيّ حال، وقد تركت باب السيّارة مفتوحاً خلفي. لا أكثر من دقيقة، لا أكثر من نظرة واحدة أعود بها إلى حيث كنت، طاوياً صفحة ما فعلته هذا النهار.

* * *

هذه المرّة جئت إلى المقهى وحدي. النادل الكسول كان حاضراً وهو أدار وجهه إلى

حيث كنا نجلس أنا ووائل، متذكّراً أنّ هذه طاولتنا. وحين جلست سألني إن كنت سأطلب الآن أو أؤجّل ذلك إلى حين مجيء الأستاذ كما قال، مشيراً برأسه إلى الكرسي الخالي في مواجهتي. "قهوة" قلت له، ثم، حين استدار عني بعد أن سجّل اسم القهوة على ورقته، قلت له، كأنما من أجل أن أؤخّر ذهابه، إنّ الأستاذ لن يأتي اليوم. وقد خطر لي أن أمازحه بأن أقول له "لماذا الورقة؟" قاصداً تلك التي سجّل عليها طلب القهوة، لكنّ مزاحي سيلقى صدى مستغرباً، فأعدت عليه طلبي: قهوة، بس قهوة.

لو أتى وائل هكذا صدفة فسيقول لي: إنت هون، شو جيت من ورا ظهري؟ وأنا سأبتسم له رغم أنّني سأكون محرجاً، إذ أبدو كأنني اغتبته فعلاً بل وتعدّيت على مكان هو مكانه. كانت الطاولات الكثيرة، الموزّعة في أنحاء المقهى، خالية على عادتها، لكنّ أصحابه، كما بدا لي، قد بدأوا بإهماله استعداداً لإقفاله ربما. تلك الطاولات المطلّة على حائط المبنى العالي رُفعت عنها أغطيتها وبدت كأنّها تنتظر أن تُحمل من مكانها. لكنهم تركوا هذه الناحية مرتّبة نظيفة الأغطية، كأنما من أجل الزبائن القليلين.

على الحائط إلى جانبي كان النبات المعرّش الكثيف قد أتمّ يباسه وانضمّ إلى كتلته الواحدة. مرّة أخرى تخيّلت يديّ، كبيرتين ضخمتين، تحيطان بالكتلة المشوّكة المحترقة وتشدّانها لكي تنقلع من أصلها.

- القهوة، قال النادل، فيما هو يضعها أمامي على الطاولة.

وكأنما من أجل أن أستبقيه قليلاً، أن أكلّمه، قلت له أن يأتيني بقطعتي كاتوه.

- بتحبّ نقّيهن أنا؟

- إي... على ذوقك.

لكنّه عاد إليّ بعد أن كان قد ابتعد خطوتين أو ثلاث...

- مش أحسن تنقّيهن حضرتك؟

على الدرج مستبقاً النادل في النزول، تنحّيت لكي تمرّ الصبيّتان الصاعدتان إلى الأعلى. ستجلسان قريباً من طاولتي فكّرت، ما دامت الطاولات الأخرى المتاحة للجلوس قد باتت في الوسط فقط ولا تطلّ على شيء. في الأسفل رحت أقلّب نظري بين القطع المصطفّة مرتّبة، كما هي، كما كانت في المرّة السابقة، ولم يشملها قرار الإهمال الذي اتّخذه أصحاب المقهى. فكّرت في أن أشير إلى اثنتين من القطع الملوّنة، راغباً في أن أعرف أيّ طعم لذلك اللون الأخضر، خصوصاً الداكن الخضرة والملتمع. لكنّني أحجمت عن ذلك، ظاناً أنّ الصبيّتين في الأعلى ستتضاحكان في سرّهما إن شاهدتا تلك الألوان في الصحن أمامي.

- آخذ هذه... وهذه.

كانت القطعتان متجاورتين ومغطّاتين بطبقة من الشوكولا مختلفة الكثافة.

في الأعلى كانت الصبيتان قد جلستا تاركتين بيني وبينهما طاولة خالية واحدة، مبتعدتين هكذا ما أمكنهما عن الطاولة التي يشغلها فنجان قهوتي الممتلئ ما زال حتى منتصفه. حين عاد النادل حاملاً على صينيّته صحن الكاتوه قلت له بصوت يمكن للصبيّتين سماعه:

- بدّي إسألك شي؟

- نعم، قالها لتبدو مثل "بدّك تسألني أنا؟".

- قطع الكاتوه التي تحت بالبرّاد رح يخلصو كلهن اليوم؟

أرجف رأسه علامة على أنّه لم يفهم.

- ... قصدي كل يوم بينباعوا كل الكاتويات اللي تحت بالبرّاد؟

فهم، وجعل يفكّر بماذا يجيب، ثم بدلاً من ذلك أعاد سؤالي إليّ:

- كل يوم؟

- نعم... كل يوم.

- أنا ما بعرف، بدّك إسأل الشب اللي تحت؟

- مش ضروري.

ظلّ واقفاً في مكانه، إذ رأى أنّ جوابي لا يكفيه ليعرف ماذا عليه أن يفعل.

- إذا بدّك اسأله، قلت بما بدا أنّه سيبقيه واقفاً أمامي منتظراً.

- إللي بيبقوا بينباعو تاني يوم، قال الصوت الذي طلع من طاولة الصبيّتين. كانتا تسمعانني متابعتين ذلك الحوار الذي بدوت فيه كأنّني أستجوب النادل. ثم استدارت تلك التي لم أكن أرى منها إلا شعرها وأعلى ظهرها لتقول لي، غير مهتمة بوجود النادل قريباً مني:

- وإذا ما نباعو بكرا بينباعو بعد بكرا.

ولم يعلّق النادل بشيء، بل ولم يبد عليه أنّه معنيّ بما سمعه، ثم أدار وجهه إليّ بعد ذلك ليرى إن كنت سأسأله شيئاً بعد. وأنا، من أجل أن أُبقي الصبية معنا، مديرة وجهها نحونا، سألتُه، بصوت حرصت على أن يكون مسموعاً منها ومن رفيقتها:

- صحيح هيك متل ما قالت؟

لم يعجبه سؤالي الأخير هذا. ربما بدا له أنّني منذ البداية كنت أتلهّى بإحراجه والتمسخر عليه. أخفض الصينية الفارغة لتصير إلى جانب ساقه واستدار ليذهب مبتعداً عن الطاولات، نزولاً إلى الأسفل، من دون أن يسأل الصبيتين عن طلبهما.

- زعّلناه، قلت جامعاً هكذا ما بيني وبينهما.

- كنا عم نمزح، قالت ملتفتة بوجهها إليّ، كأنّما من أجل أن تراني رؤية كاملة.

كان عليّ أن أختبر ذلك، أن أختبر ماذا رأت:

- طيّب هالقطعتين قدامي شغل مبارح أو أوّل مبارح؟

- إنت وحظّك، قالت رفيقتها المواجهة لي في جلوسها.

كان ذلك محيّراً. هل ما قالته يعني رغبتهما في العودة إلى ما كانتا تتكلّمان فيه؟ هل يعني أنهما تضعان حداً للحوار السريع الذي جمع بيننا. كان عليّ أن أسكت إذن. أن أعود إلى القطعتين في صحني، وأنتظر.

وقد رحت أقسم الكاتوه قطعاً صغيرة لأطيل وقت أكلها. كان طعمها لذيذاً والشوكولا الذي حُشيت به كان طيّباً وبارداً لا يزال. عندما جاء النادل لسؤالهما عن طلبهما لم يلتفت إليّ، بل بدا أنّه يتعمّد تجاهلي. هناك على طاولتهما رفع الورقة أمام عينيه كأنّه يستعجلهما الطلب. وهما لم تمتثلا، بل راحتا تتشاوران، تاركتين إيّاه متأهّباً مستعداً مع ورقته.

- راح نطلب متلك، قالت الأولى، التي التفتت نصف التفاتة لتفهمني أنّها تكلّمني أنا. ثم قالت للنادل الواقف:

- متل الأستاذ، كاتوه.

- بتحبوّ إنتو تنزلو تنقّوهن؟

اتّفقتا على أن تنزل هي، تلك الأولى، تاركة رفيقتها الجالسة في مواجهتي. كان سهلاً عليّ أن أكلّمها، لكن بمجرّد أن وطئت رفيقتها الدرجات النازلة إلى الأسفل، رفعت أمامها تلفونها وبدأت تحدّق في شاشته.

* * *

لم يكن يفيد في شيء أن أظلّ جالساً منتظراً أن تأتيني كلمة منهما ثم يعدن بعدها إلى ما كانتا تتكلّمان فيه. كنت أردّ على ما يقلنه لي، بكلمة مقابل كلمتهما، أو بكلمتين إن كان ما قالتاه كلمتين، ثم أعود إلى جلوسي الذي بدا لي محرجاً في حدّ ذاته ما دمت لا أفعل شيئاً ولا أحد معي أكلّمه. لم نكن نتقدّم إلى شيء ونحن نتبادل تلك الكلمات التي لا تترك أثراً ولا تستدعي كلاماً بيننا يأتي من بعدها. ثم إنني أدركت وأنا جالس منتظراً أن تكلّماني أنّي لا أريد منهما شيئاً، وأنّي سأبدأ أبحث عن مخرج لي من

لحظة ما يوصل الكلام بيننا إلى أبعد من الكلمات الطائرة التي يزول وقعها بمجرّد أن أردّ عليها. كلّ ما انشغلت به قبل قيامي هو ماذا أقول لهما حين تريانني وقد وقفت. هل أقول تشرّفنا، أو أقول "باي"، مختصراً ذلك ليسهل خروجي فيما هما تقولان باي بدورهما. هل أقوم وأغادر من دون أن أكلّمهما. أقوم هكذا كأنني ذاهب إلى الحمام وسأعود منه بعد قليل، ومن هناك أسرع إلى الخروج.

لكنني مع ذلك كنت مسروراً، ليس لأنّني حقّقت شيئاً، فأنا لم أكن أريد أن يحصل شيء. كان كافياً لي أن أعرف أنّ من الممكن لي التعرّف إلى من لم أكن قد عرفتهم من قبل، وأن أذهب ربما في الكلام معهم إلى أبعد ممّا وصلت إليه. ليس في هذا المقهى الذي، بحسب ما بدا لي، سيزيل في اليومين المقبلين الأغطية عن مزيد من الطاولات، كذلك فإنّه سيهمل ذلك الترتيب، لا بدّ، الترتيب المنهك، الذي لا معنى له مع ذلك، والذي استغرقه صنع حبات الكاتو كلّ واحدة على حدة، ثم تصفيفها هكذا في واجهة البرّاد.

وأنا على الطريق، سائراً نحو مرأب السيارات، أخرجت تلفوني من جيبي وطلبت رقم وائل. أردت أن أخبره عن زيارتي المقهى وعن البنتين اللتين كانتا هناك، وأيضاً عن الطاولات التي رفعوا الأغطية عنها. "هذا المقهى سيقفل يا وائل... بعد أسبوع أو أسبوعين سيقفل..."، لكنه لم يردّ على الرنين. جرّبت مرّة ثانية وأنا أقف عند الدرج الكهربائي مؤجّلاً نزولي إلى سيارتي. لم يجب أيضاً. لا يهمّ. في وقت لاحق أقول له إنني كنت هنا في المقهى وحدي، وإنّه قريبا سيقفل، مبلغاً إياه، أنا هذه المرّة، شيئاً عن هذه المدينة.

* * *

لكي أصير متآلفاً مع المحالّ المحيطة بالساحة حيث ألتقي البنات الثلاث، رحت أدخل من طريق متفرّع وأخرج من آخر. في مرّات أمشي الطريق الواحدة مرّتين، ذهاباً

وإياباً، ناظراً على الدوام إلى الواجهات على الجانبين. بل إنّني، وقد حدث ذلك في مرّات قليلة على أيّ حال، كنت أدخل إلى أحد المحالّ وأصير أتجوّل بين الرفوف التي اصطفّت عليها الثياب، أو أنظر إلى الثياب المعلّقة ظاهرة كما ستكون حين يرتديها من سيشترونها. وأنا أتصرّف كأنني واحد من هؤلاء المشترين. لا ألمس القماش بيدي، بل أقرّب إليه نظري كأنني أتحقّق هكذا من جودته. بل وأسأل الموظّفة التي تلازمني في تنقّلي عن البلد الذي صنع فيه هذا الثوب. وإذ يعجبني، أو أدّعي أنّه أعجبني، أقول للموظّفة إنني سأعود لأشتريه بعد أن أتحقّق من قياس من أفكّر في إهدائه لها.

ولم أتأخّر عن الدخول حتى إلى المحالّ التي تبيع ثياب الأطفال، وأيضاً تلك التي تفوح منها روائح الصابون والعطور التي تستخدمها النساء في الحمامات. وقد ابتعدت في تجوالي إلى ما بعد الدرجات التي تعيّن حدود الساحة، هناك حيث المحالّ التي تبيع الجواهر والساعات التي أعرف، حين أسأل الرجل الواقف هناك عن سعر إحداها، أنّه سيذكر مبلغاً صعب التصديق ويفوق كلّ تقدير كنت قد انتظرت سماعه. لكنّني لا أترك للدهشة أن تبين على وجهي، بل أبدو طبيعياً حين أسمع ما أسمعه وأقول للرجل البائع، متّخذاً هيئة التفكير، "سأعود... سأعود على الأرجح".

ذلك من أجل أن أكون متآلفا مع الساحة التي سأقضي فيها الكثير من الوقت. أنتظر معهنّ، أو بينهنّ، هنّ البنات الثلاث، في أوقات استراحتهن من الشغل، أو حتى أقعد منتظراً عودتهنّ من شغلهنّ الذي يبقين مترافقات فيه متنقّلات معاً من المكان الذي ينظّفنه إلى مكان آخر سينظّفنه. ما كنت ظننت، في الأيام الكثيرة التي سبقت، أن وقت انتظارهنّ لبدء عملهنّ كان وقت راحتهنّ، أو وقت استراحتهنّ الطويل إلى حين معاودتهنّ تنظيف ما كنّ قد نظّفنه في الصباح. كنّ يأتين مبكّرات إذن، قبل أن يأتي أوّل قاصد إلى هنا. ذاك القادم الأوّل، حتى لو كان زائراً عابراً لم يأت إلّا لقضاء

حاجته، ينتظر أن يجد كلّ شيء لامعاً هنا. لا ورقة مجعلكة على الطريق المبلّطة رمتها يد واحدة من متسوّقات أمس، لا بصمات ثقيلة دامغة على لوحات المصاعد، ولا أثر يدلّ على أنّ أبواب المراحيض الموزّعة هنا وهناك قد فُتحت قبله لدخول أحد.

كان عليهنّ أن ينظّفن كلّ شيء، لكنّهن عرفن كيف يبقين نظيفات هنّ أنفسهنّ. ما كنت ظننته عن المرأة صاحبة المحلّ المواجه لمقعدهنّ، من أنّها هي التي جعلتهنّ مختلفات عن البنات الأخريات اللواتي قدمن معهنّ على الطائرة، لم يكن صحيحاً إذن. لقد حصّلن ما حصّلنه من النظر إلى النساء العابرات اللواتي يرحن ويجئن حاملات الأكياس التي لا تقلّ رهافة عمّا وضع في داخلها، كما من التأمّل في الواجهات التي تحيط بهنّ فيما هنّ يقمن بشغلهنّ. لم يكنّ يعملن في محلّ تلك المرأة التي ظننت أنّهن يقضين وقت الصباح في انتظار وصولها. لا أكثر من أنّها كانت تستعين بهنّ لرفع الغبار وكنس الأرضية، وأيضاً لتسلّم ما يصل من بريدها في أثناء غيابها. ما كنت أظنّه من سطوة المرأة عليهنّ لم يكن صحيحاً. المرأة التي كان عليّ أن أعرفها هي أيضاً، وأن أعرف محلّها كيف هو من الداخل، لكنني لم أفعل، إذ سيتبيّن لها بعد يوم أو يومين، حين تراني جالساً مع البنات، أنّي لم أكن إلّا مدّعياً ومتطفّلاً.

حين أجيء ولا أجدهنّ أروح أنتظر عودتهنّ جالساً وحدي على ذلك المقعد، أو أتلهّى بأن أسير في الطرقات المتفرّعة لأرى ماذا تغيّر في ما تعرضه الواجهات، أو أذهب إلى ذلك البناء الضخم في آخر الساحة، في طرفها الأخير، لأرى إنّ كانوا قد بدأوا بوضع ما قد يدلّ على شكله من الخارج كيف سيكون.

* * *

في أيام، حين ينتهين من شغلهنّ وأكون أنا هناك معهنّ، نتجّه معاً إلى المرأب لكي

أوصلهن إلى البيت الذي يسكنّ فيه. آيتون، التي لا أعرف إن كانت رفيقتاها قد سلّمتا لها قيادتهما في أمورهما الأخرى، تنتظر ركوبهما في الخلف حتى تصعد هي إلى المقعد بجانبي. في المرّات الأولى كانت تظلّ مبتعدة ملتصقة بالباب وأنا أروح أبالغ في إعلاء صوتي ممازحاً إيّاها، فتضحك، وتلتفت إلى رفيقتيها لتشاركاها الضحك. الآن باتت أكثر راحة في جلوسها، أقصد أنّها تترك جسمها يسترخي على المقعد ثم تستدير بجسمها كلّه إلى الخلف لتخبر رفيقتيها عن شيء. كذلك، وهي في جلوسها المسترخي ذاك، تمدّ يدها لتدير الراديو ولتقلّب محطاته وتسألني، عندما تقف عند إحدى محطّاته، "أوكي؟"، فأجيبها بحركة من رأسي تفهم منها أنّها حرّة في أن تفعل ما تشاء.

"ننزل هنا" تقول لي حين نصير عند مدخل السهل الرملي الذي تجمّعت فيه هياكل سيارات وبقايا عربات محطّمة وكُوَم زبالة أُخرجت من البيوت التي هناك، بادئة من آخر السهل الرمليّ. كنت أستطيع أن أتقدّم بسيّارتي عابراً السهل من طرفه، غير أنّ آيتون تصرّ على أن أتوقّف حيث تقول. لا تريدني أن أقترب من تجمّع البيوت ذاك، الذي يخجلها لا بدّ اكتظاظه وفقره. وهي تقول لرفيقتيها، حين أوقف السيارة، أن تنزلا، آمرة هكذا كأنهما ترغبان في أن أكمل سيري حتى أصل بهنّ إلى أوّل البيوت.

غير أنّني أبقى وقتاً ناظراً إليهنّ هنّ الثلاث يعبرن السهل. وفي أحيان أطلق الزمور ليسمعنه وليعرفن أنّي ما زلت واقفاً هنا أنتظرهنّ. لا أعرف إن كانت قيادتها لهما مقتصرة على العلاقة بي. في مرّات أروح أمازح واحدة منهما لأعرف كيف تستجيب حين أخصّها بالكلام. في مرّات أخرى أتجاهل آيتون فأسألهما، مقلّباً نظري بينهما، إن كانتا ترغبان في أن أجيء بفطور نأكله ونحن هناك عند المقعد، أو أقول لواحدة منهما إنّني لا بدّ سأجد مكانا على الشاطئ يستطعن أن يسبحن فيه. ربما تظنّ هي، آيتون، أنّني أتعمّد القيام بتلك الالتفاتات العابرة نحوهما كي لا تبقيا مجرّد

شاهدتين على ما يجري بيني وبينها. وهي تبتسم حين تراني أُرجع يدي كي تصافحها، بما يشبه الصفع الممازح، يدُ تلك الجالسة على المقعد خلفي.

ولا أتأخّر عن أن أقول كلمة عابرة، أو كلمة هامسة، لهذه أو لتلك أجعلها تتساءل من بعدها هل هذا سرّ بيننا يجب أن تتركه لنفسها. ذاك لأني لن أكون هكذا معهنّ، مصاحباً واحدة منهنّ ومبقياً رفيقتيها مثل أختين مباركتين لما يجري أمام أعينهما. من أجل ذلك لم أقم بحركة واحدة تدلّ على أنني اخترت آيتون من بينهنّ. لم أمدّ يدي إلى يدها حين أراها قريبة من يدي، هناك على طرف مقعدها. ولم أدعها مرّة إلى أن تبقى معي من دونهما، ولم أقل لها أن نذهب معاً لشراء ما قد نأكله في وقت استراحتهنّ. أريدها أن تبقى مثلما هي، تجلس على المقعد الأمامي وتقرّر أين يجب أن أوقف السيارة لنزولهن. لكن ما أريده أيضاً هو أن تتقدم رفيقتاها عمّا هما فيه لتصيرا مثلما هي، قريبتين إليّ قربها ذاته.

ولا أعرف كيف سأكون معهنّ هنّ الثلاث بعد ذلك. ذاك أن ما يتسرّقه نظري من هذه وتلك، كما من آيتون نفسها، أظلّ حافظاً له إلى حين يأتي وقت أعرف فيه ماذا أفعل به. الآن لا أقرّب يدي من يد آيتون، لكنني أتسرّق النظر إليها تاركاً ملامستها إلى وقت سيأتي. هكذا أفعل مع الجالستين خلفي حين تكونان هنا في السيارة معي. وهكذا أفعل حين أكون أنتظر أن يبتعدن ماشيات، هنّ الثلاث، من أوّل السهل الرملي، منقّلاً نظري بينهنّ، من واحدة إلى أخرى، حتى لا أعود قادراً على رؤيتهنّ رؤية واضحة.

* * *

في أحيان يخطر لي أنّ ما أنا فيه لن يوصلني إلى شيء معهنّ. فجأة، في يوم ما أو في لحظة ما، سأتوقّف عن النزول إلى هناك، حيث ألتقيهنّ. هذا سيحدث أكيد، يقول لي وائل، مستغرباً كلّ شيء أقوله له عنهنّ. في المقهى الجديد الذي انتقل إليه بعد أن

عاف مقهانا ذاك، لا حصر لعدد المرّات التي قال فيها ”أكيد“، تلك الكلمة التي تعبّر عن مدى استهجانه لا عن رغبته في أن يصدّق ما أصفه له. وهو، في تعليقاته التي يبدو كلّ منها أقرب إلى كلمة الختام في كلامنا عنهنّ، يقول لي إنّني مستخفّ بهنّ وأن لا سبب لتعلّقي بهنّ إلا أنّهنّ لا يطالبنني بشيء. هل تعرف أسماءهنّ؟ هل تناديهنّ بأسمائهنّ؟ يسألني. وإذ أذكر له تلك الأسماء، ممازحاً في نطقها، يروح يقول لي، فيما هو يضحك: أعدها، قلها مرّة ثانية. وأنا أعيدها عليه قائلاً له إني أحبّ أن ألفظها، بل إنّي أخترع شيئاً أقوله لكي أذكرها معه.

كنت أقول لهازارا إنّني في يوم قريب سأعّلمكِ على سواقة السيّارة ياهازارا، أو أقول لنرجيس أنت تحبّين السباحة يا نرجيس وأنا سأجد مكاناً تسبحين فيه، بل نسبح كلّنا فيه، أنا وأنت وهازارا وآيتون.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

يبحث قاسم، الصحافي المخضرم، المقبل على عمر الستين عاماً، عن دلال التي ضيّعها قبل ما يزيد على أربعين سنة، تساعده في ذلك صديقته سعاد. في هذه الأثناء يستلم عمله الجديد، بصفة رئيس تحرير لمجلة قيد الإنشاء. خلال سيره إلى عمله يمرّ، كل يوم، بثلاث مستخدمات يجلسن أمام محل للألبسة، فيحييهن بإيماءة من رأسه. وبين حينٍ وآخر يرتشف القهوة مع صديقه وائل في مقهى لا يرتاده أحد وعلى وشك الإغلاق.

في خلفية هذا الروتين اليومي الرتيب، بطيء الإيقاع، تجري الحياة سريعةً متغيرة في الأسواق والشوارع. بل المدينة كلها تتغير: الأبنية الجديدة تحل محل البيوت القديمة التي هجرها سكّانها؛ المقاهي تقفل أبوابها... +++ كل ما له معنى ويحمل ذكرى أصحابه يتلاشى، لتحل محله قطع حلوى خضراء اللون لا يتناولها أحد.

نبذة عن المؤلف

حسن داوود كاتب وروائي لبناني.

كتب أخرى للمؤلف

«مئة وثمانون غروباً» - «فيزيك» - «غناء البطريق» - «أيام زائدة» - «لا طريق إلى الجنّة»